د. محمد مسعود العجمي

أوباما يَضّلُ الطريق

سيرة افتراضية

رواية

الطبعة الأولى 2009

أوياما يضل الطريق / رواية

د. محمد مسعود العجمي / مؤلف من الكويت

الطبعة الأولى ، 2009

حقوق الطبع محفوظة

هاتف : 24337733 00965 .

فاكس 24335522 00965.

E-mail: Mohammed@ajmi.com

تصميم الغلاف : محمد الفضلي

صف وإخراج : وصفي جورجي جريس

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال ، دون إذن خطّي مسبق من المؤلف.

إهداء

إلى باراك حسين أوباما

ملهما لهذه الفكرة .. محققاً إنجازاً

تاريخياً لميزان المكانة والاستحقاق

إهداء وعرفان

إلى عبد المحسن الابن والصديق الذي كان داعماً

ومساندا بأفكاره الخلاقة لهذا العمل منذ كان فكرة

راعشة حتى أصبح حقيقة وواقعاً ملموساً

اسند أوباما ظهره المتعب على الكرسي في مكتبه الرئاسي في البيت الابيض. سحب الدرج الأسفل . وجد رسالة سلفه جورج بوش الرئيس السابق الذي تركها له كعادة بعض الرؤوساء السابقين لمن يخْلِفهم ، وكما أخبره في مكالمته الهاتفية الأخيرة التي هنأهُ فيها بتوليه مقاليد الرئاسة .

عزيزي باراك أوباما...

توقف أوباما عن القراءة متسائلاً :-

لماذا لم يذكر اسم والدي حسين ؟ آه فهمت .. لا يهم !

استمر أوباما في القراءة

الكرسي ليس وثيراً ... أليس كذلك ؟ أيامك القادمة ستكون قاسية ، بل أشد قسوة. أُشفق عليك ، ولكنّي أتمنى لك النجاح. أنت الآن رئيسنا ، واجبنا أن نمشي جميعناً خلفك وندفعك إلى الأمام إنني كمواطن أمريكي أضع نفسي تحت تصرفك وفي خدمتك.

عزيزي أوباما ....

كل الملفات التي أمامك عش دبابير.

لن ترضى عنك اليهود .

ولن ترضى عنك النصارى .

ولن يرضى عنك المسلمون .

ولن يرضى عنك الشعب الأمريكي .

ولن ترضى على نفسك أوباما أيضاً.

عزيزي أوباما ...

إن أخطر الملفات هو ملف الشرق الأوسط ... الملف ليس ساخناً فحسب ، بل مُحرقاً .. إنه محرقة للجهد والأعصاب.

إن الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي يطّل برأسه عالياً بين فترة وأخرى. إنه يزداد تعقيداً كلما أراد رئيساً قبلنا أن يفتحه، لذلك سوف تسارع إلى إغلاقه مرة أخرى.

عزيزي أوباما ...

لقد ضاعت جهودي بسبب عدة عوامل كثيرة متتالية، لم تترك لي التقاط أنفاسي. فوز شارون المتشدد ، ومن بعده جاء تابعه وخليفته أولمرت الذي أنتهج سياسته ، رحيل الصديق المرن ياسر عرفات ، فوز جماعة حماس المتشدِّدة والرافضة لنجاحنا في أوسلو ولكل محاولاتنا في إحلال السلام. وزاد الأمور تعقيداً الخلاف الفلسطيني– الفلسطيني، خلاف عباس وحماس، خلاف حماس والفصائل الإسلامية الأخرى. وخلاف عباس مع الجميع .

سيجّذبك موج الصراع المتلاطم بين رئيسٍ منتخبٍ وحكومة منتخبة غير متفقين على شئ إلا على الخلاف بينهما . حكومة حماس لا

يمكنك تجاهلها - كما فَعَلت أنا- لأنها تمثل الديمقراطية التي يجب علينا إحترامها وترسيخها.

عليك أن تكْسِر خوف إسرائيل الشديد. إن إصرار إسرائيل على معاقبة حماس وصواريخها بين فترة وأخرى، هو نتيجة هذا الخوف الذي دفعها إلى شن الهجوم الدمويّ والوحشْي على غَزّة. سترعْى مصرُ بمساعدة المملكة العربية السعودية ومباركتها كعادتهما في قيادة الموقف العربي خلق هدنة هشّة، يعود بعدها الصدام من جديد.

لن يشعر الشارع العربي تحت سيطرة الأحزاب الدينية والقومية، خاصّة في العراق وفلسطين بأي ضعف أو استسلام. إنهم يستمدون قوتهم من إيمانهم العميق بقضيتهم، يدفعهم إلى ذلك الحماس الديني والإحساس القوميّ المتنامي .

عزيزي أوباما ...

كن حذراً من تصديق وكالة المخابرات المركزية، لقد دفعوا بي إلى غزو العراق - المستنقع - ولم نعثر على أسلحة الدمار الشامل المزعومة، إضافة إلى غطرسة صدام وعدم سماحه للمفتشين الدوليين بدخول مراكز ومعامل الأبحاث النوويّة العراقيّة. لقد أرهقت هذه الحرب الكريهة كاهل خزينتنا وأفقدتنا كثيراً من أبنائنا الذين كانوا يعودون في توابيت في أعياد الميلاد، وأكسبتنا سخط مواطنينا.

عزيزي أوباما...

لا تحارب المسلمين كما فعلتُ أنا وتكسب عداوتهم ونقمتهم، حارب الإرهاب كسلوكٍ منبوذٍ وعملٍ إجراميّ خطير لا يُقرَّه المسلمون أنفسهم. عليك أن تفرِّق بين الإسلام كدين يجب علينا احترامه، وما ينسب إليه من إرهاب.

إن مطاردة زعماء القاعدة في دول باكستان وإيران وأفغانستان وطرد حكومة طالبان الإسلاميّة المتشددّة، سيسبب لك إرهاقاً وألماً إن لم تستطع إقناع هذه الدول بخطورة الإرهاب عليها قبل خطورته على أمريكا.

عزيزي أوباما ...

إن المملكة العربيّة السعوديّة حليفاً نموذجيّاً وصديقاً منذ عهد الرئيس إيزنهاور، لابد من دعمها والمحافظة على هذه العلاقة المتميّزة والراسخة ولكنك ستجد صعوبة في إقناع الشعب الأمريكي بالوقوف إلى جانبها ومساندتها ، خاصة وإن إرهاب الحادي عشر من سبتمبر قد حمل توقيع مواطنين سعوديّين. إنهم سعوديّو المنشأ، لكنهم لا يمثلون الشعب السعودي الصديق. كما أن المملكة العربيّة السعوديّة و مصر تشكلان الجناح العقلاني والمؤثر في المواقف العربية، ويقودان اتخاذ القرار خاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية.

إن الكويت - الدولة الخليجيّة الصغيرة - تلعب دوراً مؤثراً باستراتيجياتها العميقة، ودورها الداعم لنا في إسقاط نظام العراق وأركانه، إضافة إلى ما تتميّز به من ديمقراطيّة رائدة في المنطقة .

لا تنس إيران وقوتها في المنطقة . تعامل معها بما تستحقّه من حجم وتأثير شديديّن. إنها لاعب رئيس في لبنان وسوريا، ولا يمكن وضعها على مدرجات المشاهدين أو مقاعد الاحتياط، ولكن مشكلة إيران تكمن في أن الكل يحكمها والكل لا يحكمها أيضاً. إن صراع السلطات الدينية وما يتبعها من جيش وعناصر أمن خاصة بها مع السلطات الحكومية وقواتها النظامية ، يجعل من الصعوبة أن تعرف مع مَن يمْكنك التعامل معه ولكن من المؤكد إن جناح السلطة الدينية المتشدّد هو الذي يحْكم . إنه يستمد قوته من إيمانه العميق بمبادئ الزعيم الروحيّ للثورة. خُميّني.

سجن أبي غريب ومعتقل غوانتانامو لن أوفيّهما حقهما من تحذير وتدبير. إنك تعرفهما جيداً وكانا جزءاً من حملتك الانتخابيّة العظيمة والكبيرة.

عزيزي أوباما ...

أعرف أنك تعرف إنني على علم بكل شئ وأعلم أنك ربما ستسألني، ما دمت على درجة كبيرة من الفهم والاطلاع لهذه الأمور،

لماذا لم أفعل ما نصحتك به الآن ؟. السبب يعود إلى عش الدبابير داخل أمريكا العظيمة، سيكتّشفه رئيساً عظيماً مثلك.

عزيزي أوباما ...

أتمنى أخيراً ألا تَحْصل سريعاً على المكافأة التي حَصلتُ عليها في نهاية مدة رئاستي، وتُقذف بالحذاء على وجهك من قِبل مُنتظر الزيدي الصحفيّ العراقيّ أو غيره كتعبير عن سخطه لسياستنا التي جلبت لبلاده وشعبه الدمار.

إن الشعْب الأمريكيّ ينتظر منك أن تعمل جاهداً على تغيير نظرة العالم تجاهنا إيجابياً ، وأن تمدَ للعالم جسور التغيير والأمل .

مواطنك

جورج دبليو بوش ، الابن

أسند أوباما ظهره مرّة أخرى إلى الكرسي ، نظر إلى سقف الغرفة أغمض عيّنيه وذهب في غفوة قصيرة .

❖❖❖

كان حسين باراك جالساً على كرسيٍ صغيرٍ أمام حديقة منزله الجميلة في قريته (كوغيلو) ، يرّشف قدحاً من مشروب محلّيٍ ساخن، أُعد بطريقة خاصة، بدأ الحاج حسين ساهماً ، مفكّراً، ينظر بعينيه الضّيقتين إلى الشجيرات الصغيرة ، نادى على ولده أوباما ، جاء الشاب

الأسود النحيف على عجل، كعادته كلما دعاه. وقف أمامه. بادره والده برفق:-

- ولدي.. اجلس قريباً ..

ربت حسين على كتف ولده . عيناه حبلى بالعاطفة، تمطران عطفاً وشفقة :-

- ولدى سأُحدِّثك حديث العقل،استمع إليه جيّداً ، أعرّني اهتمامك، سأقوله لك مرة واحدة فقط ، ربما لن تجد فرصة أخرى لتسمعه.

زحف الفتى حتى التصق بوالده، يفصل بينهما صمتاً وعمراً :-

- ولدي، لقد أضناني السفر وأتعبني العمل، حرصّت على أن أتلقى تعليماً عالياً مميزاً وقد فعلتُ ذلك بجداره. كنت متفوّقاً على نفسي وأقراني .. طموحي يا ولدي كان يفوق الزمان والمكان ... تنقّلت كثيراً ولكني عدّت إلى قريتنا بغربة وضياع كبيرين.

سكت قليلاً ، ثم أستطرد :-

إن ما دفعني إلى قول ذلك هو اكتشافي إن التفوق الدراسيّ والحصول على أعلى المراكز في العمل الحكومي، رغم بريق المنصب وتأثيره، إلا إنهما يتوقّفان بك عند نقطة محدودة تهزم طموحك وقدراتك.

توقف الحاج " حسين " ليرصد ردة فعل ابنه. كان منصتاً باهتمام، أكمل:-

- لا شك أنك قد رأيت أو سمعت عن مركز واف التجاري.. مصانع عطّرة للألبان ، شركة رويال للحديد،مركز العناية الطبي. شركة الشامل لخدمة السيارات. مغسلة جامبو الأوتوماتيكية لغسيل للسيارات. هل تعرف صاحبها ؟ ربما لا تتذكر اسمه، ولكن صُورهِ في الجرائد ووسائل الإعلام تصافح عينيك كل صباح ومساء، ليس وحده، بل آخرون تتربع أسمائهم على معالم ومتاجر هذه المدينة، وكذلك المدينة الكبيرة مثل آدم سعيد وحميده وكافي وشيخ أحمد، ولكن ما يهّمني منهم يا ولدي هو صاحب كل ما ذكرته لك إنه... الحاج بشير. سأحكي لك قصته يا ولدي:-

عندما كنت على مقاعد الدراسة متفوقاً على أقراني. لم يجد بشيرُ يا ولدي من يدفع أجرة بيتهم الذي يسكنه مع والدته وشقيقاته. ترك الدراسة مرغماً، كان يتيماً، كان يسابق عمال النظافة والقطط للوصول إلى أكوام وبراميل القمامة فجر كل يوم ليجّمع بقايا الأكل والأسمال البالية. عندما أشتد عوده ، قذفت به والدته إلى أحد أقاربها الذي كان يعمل في إحدى دول الخليج ، ليعمل معه هناك ، كان لا يعرف ولا يملك شيئاً ايضاً ...كان يعرف أن عليه أن يعمل لأجل والدته وشقيقاته الثلاث وجدّته لأبيه ، ليس مهماً ماذا يعمل . كان صارماً مع

نفسه، قاسياً عليها .. تنقّل بين وظائف كثيرة وبسيطة . بذل جهداً وصبراً كبيرين. استطاع أن يلمس المال ويتلمّسه.. عرف حقيقته وأهميته، بدأ يجمعه رويداً رويداً حتى حقّق ثروة بسيطة أرسلها إلى والدته وجدّته لأبيه. كان يشتري أراض كثيرة بمساحات صغيرة، مصانع متعثرة، مراكز خدمات لا تعمل، كُنا نسّخر منه لإقدامه على مثل هذه التفاهات. قضى سبع سنوات في الخليج قبل أن يعود للمرة الاولى محملاً بالهدايا لجدته ووالدته وشقيقاته، ولبعض أقاربه ، كان يحمل في رأسه شيئاً آخراً لم نكن نعلمه..

أفتتح متجراً صغيراً للمواد الغذائية سلّم جدته إدارته، لم تطل إقامته، عاد سريعاً إلى الخليج مرة أُخرى قبل أن ينتهي الشهر الثالث لقدومه.

وهكذا يا ولدي كُنت أقضي وقتي متنقلاً بين ولايات أمريكا ودول أوربا والشرق الأقصى، مستمتعاً بمركزي الاجتماعي وعملي الذي أُحبه. سرقني الوقت، ولكن الحاج بشير سرق الوقت وسرقنا جميعاً. كان يجّمع الأموال من عمله، بل من كل أعماله المتعدّدة، يدفنها في أرض القرية وأراضي القرى الأخرى. كنتُ أجمع الأموال أيضاً ولكني أبعثرها على نزواتي وأصدقائي . عاد بعد سبعة عشر عاماً ليستقّر في القرّية، وقد أسس أعمالاً ناجحةً تحمل اسمه هنا في القرية وفي المدينة وفي الخارج، و عمل أيضاً على ازدهارها. وأنا أيضاً عّدت يا

ولدي.. عّدت خالي اليدين، لم يكن أمامي سوى قلَّة زملاء قدامى كادوا ينسونني.

توقف الحاج حسين عن الحديث قليلاً، هزّ الفتى منفعلاً:-

- ولدي إن حديثي الطويل يعنيك تماماً. هل استوعبت حديثي ؟ .

- ...

نظر الفتي في عيني والده صامتاً .

أستطرد الحاج حسين:-

- إذا أردت يا ولديّ أن تنجح، عليك اتباع سياسة أحد الناجحين. اتخذّه قدّوة . ابحث عن قدّوة . أبحث عن سياسةٍ ناجحةٍ .

قاطع أوباما والده لأول مره :-

- والدي . أنت قّدوتي وسوف ...

لم يمهله والده، أكمل كأنه لم يسمعه :-

- ولدي لقد استطعت أن أُوفر لك عقد عمل لوظيفة في السعودية عن طريق أحد زملائي القدامى الذي يعمل هناك، كن مستعداً خلال الأيام القليلة القادمة، ستغادر إلى المملكة العربية السعودية. سأنهي إجراءات مغادرتك ... سأوثق العقد في السفارة وستجرى فحوصات طبية. توقف قليلاً . جذب الفتى إليه. احتضنه بشدة كأنه سيغادر في نفس اللحظة.

❖❖❖

غادر أوباما بوابة خروج مطار الملك خالد الدوليّ بمدينة الرياض عاصمة المملكة العربيّة السعوديّة بعد أن أنهى إجراءات دخوله ، يجر خلفه حقيبة متوسطة حمراء اللون،يلبس بنطلوناً خشناً أزرقاً وقميصاً أصفراً، ينتعل حذاء بنّي على شكل جلد نمر، طويل المقدمة، لا يلبس جورباً، ويعتمر قُبّعة زرقاء تحمي رأسه مجعد الشعر. وقف على الرصيف، أخرج ورقة صغيرة من جيّبه العلوى . كان الجو حاراً، وكانت أشعة الشمس قوّية دفعته أن يحمي عينيّه بكف يده اليسرى الذي وضعه على جبهته لتحميه من حرارتها..

تذكر حديث والده ..

لن تجد أحداً في انتظارك يا ولدي. الجميع مشغولون . اطلب سيارة أجرة واذهب إلى هذا العنوان. مدَّ إليه بورقة صغيرة سميكة، كتب فيها مؤسسة رذاء . شارع الملزْ . قرب إستاد الملزْ الرياضي، بناية بيضاء جميلة تتربع على ناصية الشارع ذات ستة أدوار، بوابتها ذهبّية اللون، تواجه محطة وقود صغيرة. مقابلة لمركز إطفاء المدينة. في الجهة الخلفية من هذه البناية، يوجد ملحقاً بنّي اللون كبيراً، دوراً واحداً، له بوابة حديديّة خضراء. اسأل عن الحاج زاهي، إنه يسكن في الملحق، ويعمل سبّاكاً في المؤسسة ذاتها. أعطه هذه الرسالة، سوف يوصلك إلى عملك. ومدّ إليه مغلفاً صغيراً أنيقاً.

تذكّر الورقة الصغيرة التي مدّها اليه والده أثناء حديثه الطويل، أخرجها من جيبه ، قرأها سريعاً ثم أعادها إلى جيب بنطاله الجانبيّ، يده تمتد إلى جيب قميصه :-

- الحمد للّه النقود ما زالت موجودة، لم تضع

اندفع إليه السائقون، كل منهم يجذبه نحوه، يريد أن يُرْكِبهُ معه، طمعاً في الأُجرة .

يا ولدي استقل سيارة الأجرة التابعة للمطار .. إنها أكثر أمانا واجلس في المقعد الخلفي، لا تركب مع السيارات الخاصة، قد تعرض نفسك للخطر وللمساءلة.

لم يردُّ على أحد منهم. شاهد مجموعة من سيارات الأجرة تصطّفُ خلف بعضها، اتجه إلى إحدى السيارات الذي قاده سائقها إلى السيارة التي خلفه. دون أن يُكلّمه، فتح أوباما الباب الخلفي لسيارة الأجرة ، رمى نفسه على المقعد واحتضن حقيبته. التفت إليه سائق التاكسي:-

- إلى أين ؟

لم يرد أوباما ، مدّ إليه الورقة، نظر سائق التاكسي إليها، لم يفهم شيئاً . استدار إلى أوباما :-

- أنا لا أعرف الانجليزية .

حرّك يده بما معناه إلى أين تريد. أشار أوباما إلى الورقة ، نزل السائق. ترك باب السيارة مفتوحاً، اتجه إلى أحد زملائه، تبادلا

الحديث والإشارات سريعاً، أخرج قلمه من جيبه، كتب العنوان. رجع إلى السيّارة . أغلق الباب ثم تحرّك إلى العنوان المحدد .

- توكّلنا على الله ..

لم يتبادل السائق وأوباما الحديث، السائق يردد كلمات أغنية تنبعث من المذياع وأوباما يلتفت يمينا وشمالاً، كان ينظر إلى الأشجار والمباني على طرفي الطريق . مرّت أربعون دقيقة قبل أن يصل السائق إلى المكان...

مركز الإطفاء بسياراته ذات اللونين الاصفر والأخضر، البناية البيضاء الجميلة التي تتربّع على ناصية الشارع . استدار السائق خلف البناية، الملحق البنّي .. البوابة الحديديّة الخضراء.. جميعها تبعث شعوراً بالرضي والخوف في قلب الفتى أوباما . أوقف السائق السيّارة. فتح الباب وأشار إلى المدخل :-

- تفضّل هذا هو مكانك الذي تريد .

❖❖❖

خرج أوباما من السيارة. يحمل حقيبته في يده، أعطى السائق أجرته، صافح السائق مودِّعاً ثم اتجه إلى الباب، طرق الباب الحديدي الأخضر، لم يسمع رداً. طرقه مرة أخرى تم طرقه مرة ثالثة. وضع أذنه على الباب . لم يسمع صوتاً . التفت خلفه لم يجد أحداً. لم يجد سيارة

الأُجرة. ابتعد عن الباب . دار حول المبنى .كل شئ يؤكد صحة العنوان . سأل نفسه مستغرباً :-

- لماذا لا يردُّ أحدٌ ؟ هل انتقلوا ؟. هل غيّروا العنوان ؟

شعر بالخوف والقلق. تَلمْس جيب قميصه، الجواز والنقودُ القليلةُ ما زالا موجودين. شكر الله على ذلك ، أطلّ عليه وجهُ والدته بابتسامتها السمحة الطيبةِ. الشعور بالأمان والراحة يغشّيان قلْبه . طرق الباب عدة مرات من جديد ، اقترب منه رجل طويل القامة يلبس ملابس غريبة ، لم يتوقف عن طرق الباب ، رفع الرجل كفّه الأيمن في وجه أوباما ، باسطاً أصابعه الخمس، مشيراً إلى الساعة في مِعصمه الأيسر ثم غادر . توقف أوباما عن طرق الباب ، لقد فهم أوباما من إشارة الرجل إنهم سيعودون الساعة الخامسة . الساعة الآن تجتاز منتصف الثالثة بقليل. شعر بالهدوء، قذف بحقيبته الحمراء عند الباب . جلس عليها وأسند ظهره ورأسه للجدار .

أصوات كثيرة من حوله. نهض خائفاً ، فرك عينيه، شاهد مجموعةً كبيرةً من العمال تحيط به ولكنها تتجاهله، كل منهم في شأن. تصفّح وجوههم مستغرباً عدم اهتمامهم به. أغلبهم سمر الوجوه. أمسك ذراع أحدهم، وصرخ في وجهه :-

- زاهي.. زاهي.

لكنه دفعه بقوة، أمسك ذراع رجل آخر، أفلت نفسه منه، صرخ بصوت مسموع:-

- زاهي.. زاهي .

اقترب منه أحدهم وجذبه من كتفه، ذهب به إلى داخل المنزل ثم دفعه إلى رجل نحيف طويل، يجلس على حافة سريره، ما زال مرتدياً بدلة العمل الرمادية، مُمدداً ساقّيه. قَدميه بلا جوارب، خاطبه بعصبيّه:-

- زاهي ، أنه يبحث عنك !

نهض زاهي ، احتضنه . ضمه إلى صدره:-

- أنت ابن الحاج حُسين.. أليس كذلك ؟

هز أوباما رأسه بالإيجاب . شعر بارتياح نحوه ، أجلسه الرجل بجانبه على السرير:-

- لقد حدّثني والدك عن مجيئك.

كان هناك شخصُ آخر متمدداً على السرير في الزاوية الأخرى. يغطي رأسه بوسادة، ليس نائماً، ساقاه السوداوين يتحركان إلى أعلى وأسفل بحركة خفيفة متتالية.

كان زاهي يتحدث مع أوباما وهو يعمل قدحي الشاي . تبادلا الأحاديث الكثيرة والأسئلة. شعر أوباما بالراحة وأحس بارتياح كبير نحوه ، ضحك أكثر من مرة كضحكة طفل حَّدثته والدته قصة

مشوِّقة . بعد أن تناولا العشاء وشربا أقداح الشاي ، وضع زاهي فراشاً وغطاء على الأرض بجانب سريره :-

- أوباما .. سأنام على هذا الفراش وستنام على فراشي ، وغداً بعد عودتي من العمل ، سوف أذهب بك إلى الشيخ فهّاد ، معزبك لتباشر عملك.

رد أوباما :-

- أنا سأنام على الأرض .

حسم زاهي الموضوع، تمّدد على الفراش، سحب الغطاء على رأسه:-

- أوباما أنت ضيّفي .. وابني ... تُصبح على خير .

واستطرد :-

- أوباما .. لا تنهض مبكراً، لن تجد أحداً في السكن.

رد أوباما:-

- ماذا لو ذهبت معك إلى العمل ؟
- فكرة جيدة ! ستذهب .

❖❖❖

في الطريق إلى عزبة الشيخ فهّاد العايض التي تقع في مدينة "الخرج"، تبعد عن الرياض سبعون كيلو متراً جنوباً .. يوجد عزب أخرى كثيرة منتشرة بالقرب منها. يوجد في كل واحدة أعدادً مختلفة من

الإبل، يجتمع أصحابها في نهاية الأسبوع. يوقدون النار ويصنعون القهوة والشاي والحليب . يتباهون بحلب الإبل، ويتنافسون على كثرة الحليب ولذة الطعم ، يتهادون الإبل ، يبيعون ويشترون فيما بينهم ، ويقيمون المزادات والمزاين لإبلهم . تصل قيمة بعض الإبل إلى ملايين الرّيالات. يقيمون السباق أيضاً بين أنواع من إبلهم مخصصة للسباق، ويقدمون المبالغ النقدية والسيارات والسيوف المذهبة كجوائز لهذه المسابقات، وقد يقدم هذه الهدايا بعض الأمراء ووجهاء المجتمع وزعماء العشائر والقبائل. انحرفت السيّارة عن الشارع الرئيس إلى طريق ترابي خشن غير معبد، توغلت فيه مدة عشرة دقائق تقريباً، لم تستقر على الشارع، كانت السيارة تقفز قفزات قصيرة متلاحقة. خفف زاهي من سرعته، استدار حول إطار سيارة كبير الحجم، مزروعاً في الأرض ومثبتاً ببعض الحجارة الثقيلة، يستخدم كعلامة وصول إلى المنطقة.

التفت إلى أوباما :-

- هذه عزبة الشيخ فهّاد.

وأردف ضاحكاً :-

- هذا مقر عملك الجديد .

أشار زاهي إلى مجموعة خيام متراصّة . خيمتان متوسطتي الحجم وخيمة صغيرة ، وبيت شعر أسود مستطيل يبتعد عنها مسافة قليلة، بالقرب من الخيمتين شبك حديدي على شكل ثلاث صفوف من

الأسلاك الحديديّة التي تستخدم للحماية ذات العقد المدببة ، ترتفع مسافة متر ونصف عن الأرض ، يشّد بعضها إلى بعض ألواح خشبية متهرئة، يفصل بين كل واحدة وأخرى مسافة ثلاثة أمتار، تحجز وراءها سبعاً وعشرين ناقه وثمان أُخرَ صغيرات ، قُسِّمن إلى أربع مجموعات ، يفصل بعضها عن بعض قضبان حديديّة سميكة، وفي الزاوية الأخرى من الشبك الحديدي، يوجد بعير ضخم أسود اللون، تتدلى شفته السفلى بشكل ملحوظ، مقيَّد ومحجوز خلف شبك حديديّ صغير وسميك، كما يوجد غرفة كبيرة يحيط بها سور من ألواح الصفيح المتآكل، مُقسمّة من الداخل عدة أقسام صغيرة، كل قسم به مجموعة مختلفة العدد من الأغنام والماعز.

يبتعد عن مجموعة الخيام وبيت الشعر، أحد البيوت الخشبية الطويلة الجاهزة الصنع ،المحمي بألواح الصاج مرفوعاً على هيكل معدني ، محمولاً على إطارات سيارات كبيرة ليسهل نقله ، يستخدم كمقر واستراحة للشيخ فهّاد وأصحابه، مكّوناً من غرفتي نوم ومطبخاً صغيراً ودورة مياه، وغرفة جلوس متوسطة ، مزَّود بوسائل الراحة والترفيه، مفروشاً ومؤثثاً تأثيثاً فاخراً . ملحقا به خزان ماء صغير مرفوعاً على برج حديدي، تقف بجانبه سيارة نقل ماء، كما يوجد مولد كهربائي صغير الحجم وبجانبه خزان زيت صغير ، داخل غرفة من الصفيح . العزبة محاطة بعدد كبير من الإطارات المستعملة ولها مدخلاً خشبياً عريضاً .

أوقف زاهي السيارة داخل سور العزبة ، نزل سريعاً :-

- أوباما .. لا تنس أن تأخذ أغراضك. سأعود إلى الرياض سريعاً .

اقترب زاهي من بيت الشعر .كان الشيخ فهّاد ورجلٌ آخر واقفين ينظران إلى الإبل خلف السور الشبكي، لم يشعرا بقدوم زاهي الذي ألقى التحية عليهما :-

- السلام عليْكم يا عميّ.

التفتا الرجلان نحو جهة الصوت. قال الشيخ فهّاد :

- مرحباً ... مرحباً زاهي، حياك اللّه.

اقترب زاهي من الشيخ فهّاد ، قبّل رأسه وأنفه ، ثم مدّ يده إلى الرجل الآخر مصافحاً ، التفت خلفه ، ما زال أوباما واقفاً لا يع شيئاً مما يحدث أمامه ، قال زاهي :-

- أوباما .. قبل رأس عمّك الشيخ فهّاد .

ففعل أوباما ، قال زاهي :-

- عمي الشيخ ... هذا راعي الإبل الجديد.

الشيخ فهّاد يتفحص أوباما :-

- زاهي .. الولد طويل .. وشْ اسمه ؟

- أوباما

- ماله غير هالاسم ؟

صمت زاهي قليلاً ثم أجاب :-

- ما فيه .

- والله يابوك احتاج وقت علشان أحفظه .

ضحك زاهي :-

- عميّ ... هل تذكر الراعي السوداني الذي قبله ؟

- أذكر.

- غادر ولم تحفظ أسمه يا عمّي . قالها زاهي ضاحكاً .

تدخَّل الرجل الواقف قربهما :-

- سمّه يا شيخ فهّاد ، اعطه اسماً من عندك.

رد الشيخ فهّاد باقتضاب :-

- سمّاه أبوه قبلي ، ليش أسمّيه ؟

التفت إلى زاهي :-

- خذه إلى غرفته ، غرفة السوداني ، خله يحط أغراضه فيها ، سيجد فراشاً وغطاء. يرتاح اليوم وبكره نُعلمه الشغل .. خله يأكل شيئاً قبل ما ينام . ولا ينس يقوم يصلي الفجر.

- أمرك يا عمّي .

جذب أوباما من يده :-

- أوباما اتبعني .

دفع زاهي باب الغرفة ، لم يكن مغلقاً . وضع أغراض أوباما على الأرض، سحب فراشاً كان ملفوفاً. فرشه على الأرض. وضع الوسادة على طرفه ورمى الغطاء على الطرف الأخر ، التفت إلي أوباما :-

- هذا فراشك، يجب أن تنام مبكّراً.

التفت أوباما إليه مذعوراً :-

- زاهي .. هل ستتركني وحدي ؟
- نعم .. هذا مقر عملك، ماذا تريدني أن أعمل
- تجلس معي إنني خائف. كيف أُكلم الرجل ؟ ، لا أعرف لغته .
- كيف ؟ ستتعلم كل شئ سريعاً ، أنت ولد ذكي .
- لا أستطيع أن أفهم عليه.. أو يفهمني .
- اكتشف ذلك بنفسك . ستفهم كل شئ بالتدريج .

تعلّق أوباما بذراع زاهي :-

- لن تتركني .. أنني أخاف.. أخاف أن أنام وحدي .

صمت زاهي ثم سأله :-

- هل تريدني أن أنام معك ؟ عيب عليك .. أنت رجل. سأزورك كل يومين أو ثلاثة.
- زاهي .. أخاف !
- انظر إلى الجميع من حولك . كلهم متواجدون في عزبهم.
- لا أريد أن أعمل ... سأعود إلى بلادي .

كتم زاهي ضحكته :-

- هل ستعود إلى والدك ؟

دخل الشيخ فهّاد عليهما دون أن يشعرا به، قاطعهما :-

- زاهي ! .. زاهي !

- نعم عمي الشيخ .
- زاهي .. وش يقول ؟
- يقول عسى اللّه يطول عمرك ويخليك.

انتهز زاهي الفرصة لترك أوباما وحده، قبّل رأس الشيخ فهّاد :-

- عمي الشيخ .. أوباما جاهز للعمل وأنا أستأذن .

ربت الشيخ فهّاد على كتف أوباما :-

- اللّه يحييّك .. اللّه يحييّك .

خرج زاهي مسرعاً ، قبل أن يلحق به أوباما ، وكان يكتم ضحكة كبيرة . ولكنه فجَّرها عندما أصبح وحده :-

- كيف يخاف ؟ يا له من طفل !

❖❖❖

كان الظلام دامساً ، قلّب أوباما نظره في كل مكان ، كاد أن يسقط قلبه هلعاً مع كل صوت داخل الخيمة الصغيرة أو خارجها. جلس على الفراش . كان الباب مفتوحاً، ولكنه لا يرى شيئاً. أراد أن يخرج، منعه الخوف من ذلك. جمع شجاعته. انطلق إلى خارج الخيمة. جمع صراخه العالي عمّال العِزبْ الأخرى من حوله. أشفق عليه أحدهم. أخذه معه إلى عزبته وسمح له بالنوم معه في العزبة، حاول أن يحادثه، لم يستطع. كلاهما لا يعرف لغة الأخر، أعاده في الصباح الباكر إلى عزبة الشيخ فهّاد.

قَدمَ الشيخ فهّاد قبيل الغروب في اليوم التالي. وجد أوباما جالساً أمام الخيمة، متربعاً فوق حقيبته الحمراء، كان يبكي، نهض خائفاً، أشار بيديه حركات متقاطعة فَهم منها الشيخ فهّاد بعدم رغبته في العمل. هز الشيخ فهّاد رأسه وبصوت منخفض :-

- ما عليه.. ما عليه كلكم في البداية لا ترغبون في العمل .. وبعدين ما عاد تبون تروحون لديرتكم.

هاتف الشيخ فهّاد صديقه أبا حمود ، صاحب العزبة المجاورة :-

- أبا حمود .. الحق .. الحق .
- أمرك يا شيخ فهّاد ، جَهِّزْ القهوة.
- جاهزة ... جاهزة يا أبا حمود .

حكى الشيخ فهاد وهو يضحك ما حدث لأوباما .

رد أبو حمود ضاحكاً :-

- لقد حكي لي الصبيّ شهيل قصته، سمعوا صراخه في الليل فجاء به شهيل لينام عنده ، ثم أعاده إلى مكانه .

ضحك الرجلان وهما يشربان القهوة ويأكلان التمر. قال الشيخ فهّاد :-

- أبا حمود .
- أمرك يا شيخ .
- نبي صبيك شهيل يدربه على رعي الإبل وحلبها وكيف يعلفها .

- طيب يا شيخ .
- وما فيه مانع يأخذه معه في الليل.. يأكل معهم وينام إلى أن يأخذ على المكان.
- طيب يا شيخ .

❖❖❖

أصبح أوباما خلال فترة قصيرة يعرف كيف يقدِّم الأكل والماء للإبل والغنم وكيف يُعّد القهوة والشاي والحليب للشيخ فهّاد وضيوفه، وكيف يُعّد العشاء ويذبح الخراف . شوهد أوباما أكثر مرة يقفز هارباً عندما تنحني عليه إحدى الإبل لمداعبته أو تضرب الأرض بأحد أطرافها إذا اقترب منها أوباما ، وشوهد أيضا أكثر من مرة يمسح وجوهها ورقابها برفق عندما يداعبها، ويحاول إخراجها من الشبك الحديدي لترعى في الخارج ويحررها من سجنها المؤقت .لم يعد أوباما يخاف من النوم وحيداً. كان يُشعل النار أمام خيمته ويجمْع حوله بعض الرعاة، كانوا يشربون الشاي والحليب يتبادلون الأحاديث. كسب ودّهم ومحبتهم له. شيئاً واحداً ظل أوباما لا يستطع أن يفعله أو يجيده... حَلْب الإبل وكان هذا الشئ المهم الذي يريده الشيخ فهّاد من أي راع ، لأنه يتباهى بحليب نياقهِ أمام ضيوفه.

سمع الرعاة في أحد الأيام صراخ أوباما، اجتمعوا حوله ،كان يصرخ من الألم، يمسِّك ساقه بيد ويشير بيده الأخرى إلى عقربٍ

سوداء، كبيرة الحجم. ضغط أحدهم بسرعة على ساق أوباما من الأعلى ، بينما شقَّ الآخر مكان لدغة العقرب بموس حلاقة صغير، تدفّق الدّم إلى الخارج وسط ذهول أوباما وصمته ، طهّروا الجرح بالماء والملح ثم لفّوه بقطعة من القماش :-

- سلامات .. سلامات أوباما . لقد انتهى كل شئ . الأمر ليس صعباً أليس كذلك ؟

هز أوباما رأسه موافقاً، يمزِّقه ألم الجرح والخوف .

❖❖❖

في عصر أحد الأيام ، شاهد الشيخ فهّاد كدمات صغيرة في وجه أوباما وجرح قطعّي أعلى جبهته، وأثار حبل حول مرفقيّه، سأله الشيخ فهّاد :-

- ماذا حدث لك ؟ هل سقطت ؟

رد أوباما وهو ينظر إلى الأرض :-

- لقد ضربوني وقيَّدوني .
- من هم ؟ من الذي ضربك ؟
- كانوا خمسة أشخاص . ضربوني ثم قيّدوني وحلبوا لأنفسهم ، وقبل أن يغادروا ، رفسني أحدهم في بطني .

رفع ثوبه فظهرت أثار الرفسة .

- ليش ؟
- طلبوا مني أن أحلِب لهم الإبل ولم أفعل.

- كان عطيتهم ، ما ينقص شئ.
- قلت لهم لا أعرف حلْب الإبل، لم يصدقوني .

ضحك الشيخ فهّاد حتى كاد أن يسقط على ظهره :- .

- آه .. اللّه يغربلك يا أوباما ما تنفع في شئ . لازم أجيب راعي غيرك وأنت أخليك تخدم المكان.

وأضاف :-

- قبل ما أنسى .. جهِّز العشاء . الليّلة بيجونا ضيوفُ من الكويت، إنهم أبناء عمومتي . اذبح خروفين واطبخهم زين وحطّهم على الصحون الكبار مثل كل مرة ... سمعتني ؟
- نعم .. حاضر عمي .

❖❖❖

قال أحد الضيوف للشيخ فهّاد العايض وهم متحلقون على صحن العشاء الكبير :-

- صبيّك شقرديْ ... هاب ريح. هل هذا طبخه ؟
- نعم
- ما اسمه ؟
- أوباما.
- سوداني ؟
- لا .. كيني
- ويعرف يرعى الابل ؟

- حظه عاثر .. سرقوا أغراضه وضربوه عدة مرات ليسقيهم حليباً رغماً عنه ،ما يقدر يفكّ نفسه، لدغته عقرب مرتان وعضّته حيّة، ما ينفع، جبته للعزبة علشان يخدمني ويسوي القهوة والشاي والأكل ، إذا كنت وحدي أو جاني أحد مثلكم وشرواكم ، أريد الأجر فيه ، يكّد على عايلته في ديرتهم ، أحضره واحد من عمالي في المؤسسة .

- اسمع يا شيخ فهّاد .. أنا سآخذه معي عندما نرجع إلى الكويت ليرعى الغنم ويخدم في المزرعة ، لقد أعجبني .
- لو تطلب واحد من عيالي عطيتك إياه.
- أحسنت يا شيخ فهّاد.
- بكره أذهب .. وأستخرج له تصريح خروج معك.
- أحسنت يا شيخ فهّاد.. وأنا سأرتب أوراقه في الكويت، أعطني صورة جوازه وبكره أبعثها لابني ناصر ونستخرج له فيزا دخول الكويت، يخلصّها ناصر في نفس اليوم إن شاء الله. .
- مثل ما تشوف.

❖❖❖

بعد يومين، كان الشيخ فهّاد يتناول القهوة مع ضيوفه ، نادي على أوباما :-

- أوباما .. أوباما .

أقترب الفتي الأسمر ، جلس على ركبتيه أمام الشيخ فهّاد :-

- نعم عمي ...
- لقد أعجبت أبو ناصر. سيأخذك معه إلى الكويت.. أنا وياه شيء واحد. كأنك عندي . وهو رجل شهم .. كريم ، جَهّز أغراضك واجمع حاجاتك ، وأن ما أعجبك الوضع هناك بس كلّمني . رقم تليفوني عندك ، هذا باقي معاشك لهذا الشهر وبكره تخاويهم للكويت.

رد أوباما بفرح :-

- حاضر ... حاضر عمي.

في تلك الليلة لم ينم أوباما. سيذهب إلى الكويت . أغلب الرعاة والمزارعين والعمال حدّثوه عن الكويت ، وعن تجمع العمال أيام الأجازات وفي الأسواق الخاصة بهم ، والحدائق العامة وحول مكتب البريد والالتقاء بالنساء من الخادمات والعاملات، جميعهم يرغبون في الذهاب الى الكويت ولم يفلحوا وأنا تأتي الفرصة تحت قدمي. حفظ الله والدتي لا شك انها دعت لي اليوم كثيرا . حفظ الله والدي وأخوتي .

❖❖❖

وصل أوباما إلى الكويت في العاشرة ليلاً ، لم تكن المسافة بعيدة ولكنه كان مرهقاً من أثر السّفر بالسيّارة ، طلب منه أبو ناصر أن

ينام في غرفةٍ كبيرةٍ واسعةٍ، تحيط بها من الداخل مقاعد إسفنجيةٍ مرتفعةٍ ورفٍ خشبيّ مملوء بالدلال والاباريق .

- ما اسمك ؟ لقد نسيته
- أوباما .
- اسمع أوباما .. غداً فجراً سنذهب إلى الغنم في المزرعة.

اشترى أبو ناصر سريراً حديدياً وفراشاً إسفنجياً ووسادة وغطاء سميكاً وغترتين وملابساً جديدة وحذاء ومجموعة كبيرة من المعلبات الغذائية وشاياً وسكراً وضعها في كرتون كبير ، ثم وضعها في مؤخرة السيارة.

- أوباما كل ما تحتاجه من أكل وفراش هنا وتحتاج إلى هذا أيضاً ، وقدم إليه جهاز هاتفاً نقالاً مستعملاً ، اتصل بي عندما تحتاج شيئاً :-
- هل تعرف كيف تستعمله ؟

هز أوباما رأسه بالإيجاب .

أظهر أوباما نجاحا كبيراً في الزراعة ورعي الغنم والاهتمام بها ، كان ينظف المكان ، ويخرج بها ولا يتركها دون ماء أو أكل ، أحبّه أبا ناصر وعائلته جميعاً. كان أوباما لا يدخر جهدا في خدمتهم وإسعادهم . أصبح يهتّم بهم ويشارك الابناء لعب الكرة وصيد العصافير في المزرعة ويجهّز لهم كل شئ قبل حضورهم ، ينظِّف المكان ويُعدّ القهوة والشاي ويوقد النار . أحبّه جميع زملائه العمال وعمال المزارع

الاخـرى . أصـبحوا يتجمعـون عنـده في المزرعـة يـشربون الـشاي سـوياً ويتبادلون الاحاديث ويشتركون في مشاهدة التلفاز.

في أحد الايام أخبر أبا ناصر أبنائه بأن الغنم قد أرهقته ، وبأنـه لم يعـد يملـك القـدرة علـى إعالتهـا ، فقـد ارتفـع سـعر الأعـلاف إلى ثلاثـة أضـعاف سـعره ، والمـاء أصـبح شـحيحاً ، وازداد سـعر صـهاريج المـاء ولا يستطيع أن يشاهدها تصاب بالهزال أو تموت أمامه جوعاً أو عطشاً.

قال له أحد أبنائه :-

- منذ مدة طويلة ونحن نطلب منك أن تستريح وتترك أعبائها.

ألتفت إلى بقية أبنائه يسألهم :-

- ماذا تقولون ؟

أجابوا جميعاً بالموافقة على تركها .

❖❖❖

شاهد أوباما سيارات نقل كثيرة تقترب من حظيرة الأغنام، أوجس في نفسه خيفة لكنه صمت،أقترب من الحظيرة ليستطلع الأمر، لم يشعر بأبي ناصر يقترب منه. صوت أبي ناصر ينتزعه من شروده:-

- أوباما .. سنبيع الأغنام يا ولدي.. سترتاح منها .

حَزِن أوباما .. لقد عشقها وأحبها كثيراً.. استدار إلى الحظيرة، امسك طرفها بيديه ، وضع رأسه عليهما، أقترب منه أبو ناصر، ربت على كتفه، احتضنه:-

- لا تحزن أوباما ، سنجد لك عملاً .
- لست حزيناً لأنني ربما لا أجد عملاً، إنني حزين لفقدها، لقد تعودت عليها وأحببتها.
- أعلم ذلك، لقد أرهقتني ولم أعد أستطيع تحمّل نفقاتها.

صمت أوباما ولم يرد ، قال له أبو ناصر :-

- ستعمل سائقاً. سأُدربك على القيادة . وسأستخرج لك إجازة قيادة، ستكون معنا .. أنت مخلص ومجتهد.. جميعنا نحبك.

ردّ أوباما بحزن :-

- عمي ... لا .. لا أرغب في قيادة السيّارة، إنني أخاف كثيراً. لا أستطيع.. لا أريد .. لا أريد.

ثم أنخرط في بكاء شديد.

- لا بأس، ستعمل عندي في المنزل.. لن أتركك، أنت كواحد من أبنائي.

ظل أوباما يخدم في منزل أبي ناصر ، يعدّ القهوة والشاي، ويصبهما كل ليلة بعد المساء حتى الساعة الحادية عشر ليلاً ثم يذهب إلى النوم. يحُضر بعض الأغراض من السوق القريب. يقوم بغسل سيارات أبي ناصر وأولاده. ما زال يعمل بجهد وإخلاص كبيرين.

كان أوباما يلتقي بالسائقين والخدم الآخرين عند فرع الجمعيّة التعاونيّة، يراقبون الخادمات ويتحرشون بهن وكذلك يفعلْن الخادمات إذا خرجْن لشراء بعض الحاجات أو خرجْن خلسة دون علم ربات البيوت. كانوا يتبادلون الأحاديث والنكات ويداعبون بعضهم. يقرأون رسائل ذويهم ويُطلعون بعضهم على صورِ أبنائهم وزوجاتهم ، ويخططون لما سوف يقومون به في إجازاتهم الأسبوعية، ويتسألون عن القوانين الجديدة المتعلقة بتحويل الإقامات أو قوانين الإلغاء أو فترات السماح التي ينتظرونها لتعديل أوضاعهم والمغادرة دون دفع المخالفات .

كان بعضهم يحمل صور لجوازات سفر لمواطنيه يرغبون في القدوم إلى الكويت، ويبحث عن إمكانية قدومهم ، وبعضهم يزعم إنهم أقاربه ولكنهّم غير ذلك ، أنه يتاجر بإحضارهم .

حدّثوه عن إجازتهم الأسبوعية وذهابهم إلى المرقاب والقبلة وشارع محمد بن القاسم وتجمعاتهم الكثيرة . أبدى رغبته في الذهاب معهم تكفل صديقه زين الدين بإصطحابه الجمعة القادمة .

شاهد أوباما خياماً كثيرةً تم نصبها سريعاً ، في أماكن متفرقة قريباً من بعض المدارس . زُودّت بمقاعد وثيرة وإضاءة قويّة متميّزة، يتردد عليها كثير من الرجال في الفترة المسائية ، ويُقَدّم فيها القهوة والشاي والعصائر والأكل المُعد في مراكز التجهيزات الغذائية، كما لاحظ انتشار صور كثيرة بأحجام مختلفة لبعض الأشخاص في الشوارع

الرئيسية وأمام الجمعيّة التعاونيّة وعند الإشارات الضوئية وتقاطع الطرق داخل الأحياء مما يحجب الرؤية في الجهة المقابلة، سأل أوباما أحد زملائه السائقين :-

- ماذا يحدث ؟
- إلِكْشن
- ماذا ؟
- انتخاب .. انتخاب برلمان بعد 4 يوم ؟
- آه .. آه فهمت .
- أكل بلاش ... عصير بلاش ... شاي بلاش .

صمت أوباما ، أستطرد زميله :-

- كويت فيه حريّة .. فيه ديمقراطيّة .. مو مثل بلد مال أنا .

رضى أوباما عن حياته في الكويت. كانت جميلة ورائعة . لقد صدقوا في ذلك .

في أحد الأيام ، اقترب أوباما من أبي ناصر الذي بادره :-

- ماذا تريد يا أوباما ؟
- عمي .. أريد أن أذهب يوم الجمعة القادم إلى " المرقاب" ، سأجد أشخاصا كثيرين .

توقف قليلاً ثم أضاف بحماس:-

- يقولون إن العمّال يجتمعون هناك في أيام العطل والإجازات، ويحوِّلون المبالغ إلى أهاليهم ويتَّصِلون بهم ويبعثون إليهم بالرسائل ويتعارفون.

رد أبو ناصر بهدوء :-

- لقد أخبروك عن كل شئ . لا بأس.. اذهب .. اذهب يوم الجمعة القادمة.

❖❖❖

في صباح يوم الجمعة التقى أوباما صديقه زين الذي وعده بأخذه معه إلى المرقاب. ذهبا سوياً في جولة. انبهر أوباما بما شاهده من مبان عالية لم ير مثلها من قبل، كما لفت نظره ارتفاع برج التحرير وتصميمه الجميل. شاهد الازدحام الكبير على محلات الاتصالات الدولية و محلات التصوير لالتقاط الصور مع أصدقائهم وصديقاتهم.

شعر أوباما أنه يرى الكويت للمرة الأولى، التقى زين هناك بالعديد من أصدقائه وعرّفهم على أوباما .كان من بينهم من يعمل بشركات النظافة وتبادل الجميع أطراف الحديث . ولفت انتباه أوباما حديث عمال النظافة عن طبيعة عملهم وما يحصلون عليه من مبالغ إضافية من الآخرين ومن ساعات العمل الإضافية وما يتركه لهم الموظفين عند قضاء حاجاتهم . قرّر أوباما في نفسه أن يعمل معهم في إحدى شركات

التنظيف . أبدى رغبته لأحدهم الذي تعهد بإلحاقه في الشركة وطلب منه موافقة كفيله.

❖❖❖

كان أبو ناصر جالساً في الديوان لوحده، متكئاً على وسادة كبيرة، يقرأ صحيفة يومية. وقف أوباما أمامه باحترام . انتبه إليه أبو ناصر:-

- ماذا تريد يا أوباما هذه المرة ؟ لم أعد أحب وقوفك فوق رأسي .
- عمي .. أريد أن أعمل في شركة نظافة، يقولون إن رواتبها كبيرة، وأنا أحتاج كثيراً من المال لأبعثه إلى عائلتي.
- تريد أن تتركني وتعمل عند غيري ؟
- نعم !

نهض أبو ناصر مغتاظاً وصفعه على وجهه :-

- أغرب عن وجهي ... هل قَصّرت معك ؟. لقد جئت بك من البادية .. يملأ الغبار عينيك ويغطي التراب وجهك. تتعرض للبرد والمطر. أسكنتك في المزرعة. اشتريت لك الملابس الجديدة . تأكل مما نأكل . وتنام في مكان مريح آمن. تستلم راتبك نهاية كل شهر وتقول إنك لا ترغب بالعمل عندي. أغرب عن وجهي .. أغرب .

ذهب أوباما إلى غرفته، وقبع فيها حزيناً مكسوراً ولم يعمل في اليوم التالي كعادته، شعر أبو ناصر بغيابه، تركه ولم يستدّعه للعمل.

لقد أحسَّ بأنه قد أهانه بصفعه على وجهه فقرر أن يتركه اليوم ليجد وقتاً للهدوء وليبتعد عن ناظريه ، وما يسبب ذلك من حرج لأوباما.

❖❖❖

امسك أبو ناصر هاتفه ليرد على مكالمة هاتفيّة، فوجئ بصوت الشيخ فهّاد العايض على الطرف الآخر :-

- أبا ناصر.. كيف حالك يا بن العم ؟
- أهلاً .. أهلاً يا شيخ فهّاد .. الحمد للّه .طيّب .
- ليش مْزعل أوباما ؟
- أيه ... وصلك الخبر ، لقد قل أدبه ورفض العمل معي .. يريد أن يعمل في شركة للنظافة.
- تراه غالي عندي مثل واحد من عيالي ، علشان خاطري وقدري عندك نفذْ طلبي، وخلّه يشتغل في الشركة التي يبغيها، مدري وش اسمها.
- حاضر يا شيخ فهاد. أمرك .
- استدعى أبو ناصر أوباما، وأبْلغه بالسماح له بالعمل في إحدى شركات التنظيف .

❖❖❖

التحق أوباما بعمله الجديد، عامل تنظيف في شركة "الكون" لمقاولات التنظيف والمدن،التي تقدم خدماتها لعدة مؤسسات حكومية وشركات، كانت وظيفته القيام بمسح المكاتب وتنظيفها بوزارة

الإسكان بمجمع الوزارات، ويقوم بتصوير الأوراق والمستندات. برع أوباما - كعادته - في عمله الجديد، بل أصبح محل ثقة نساء القسم، يُحضر لهن حاجاتهن الخاصة، وينفِحَّنه بعض المال. عرف أوباما أنه ضلّ الطريق في أول يوم ذهب فيه إلى سكن الشركة، الذي يقع في منطقة جليب الشيوخ المشهورة بسكن العُزّاب وعمال شركات التنظيف والمقاولات ومنطقة مواقف لشاحنات الرمل والصلبوخ والباصات وصهاريج المياه والعمالة السائبة والهاربة، وشقق إيواء الخادمات الهاربات ووجود شقق الدعارة ومصانع الخمور المحليّة، وتجمّع العمال الهاربين من أرباب عملهم والعمالة المخالفة لقانون العمالة، إنها منطقة مغلقة على هذه الفئة من الأشخاص، يُجمّل صورتها منطقة المجمعات التجارية وقسائم وبيوت السكن الخاص. وصل أوباما إلى السكن بصحبة المسؤول عنه أحمد، الذي قاده إلى غرفته، لقد حشروه مع اثني عشر عاملاً بنغالياً في غرفة واحدة لا تتجاوز مساحتها تسعة أمتار، سريرٌ حديدي صدء له رجلان من الحديد فقط، ومحمولٌ على طابوقه وعلبة حليب فارغة بدلاً من الرجلين الأُخريين، وفراش قطني مهترء، يوجد حمام واحد يخدم أربع غرف أُخر، ولا يوجد مطبخ خاص لهم، ولا مكان إستحمام خاص، مجرد أنبوبةٍ مهترئةٍ مزروعةٍ في الجدار، يُقَطّر منها الماء بضعف وغير انتظام ، وينقطع عنها بين فترة وأخرى ، كما يوجد عدد كبير من العلب البلاستيكية، تستخدم للإستحمام اليدوي وقطع متناثرة من الصابون المتشقّق. يوجد عدة مواقد صغيرة، وعدد

كبير من إسطوانات الغاز بعضها فارغ. الأولوية لمن سبق. شيئان يثيران إشمئزازه منظر العمال البنغالين وهم يلوكون فرشاة أسنانهم في أفواههم دون استخدامها ، وكذلك وهم يبصّقون على الأرض.

كل يوم، في الساعة الخامسة صباحاً ، يغادر أوباما سكنه، يُقلّه الباص الأصفر القديم، ذو الأربعين مقعداً بنوافذه الزجاجية وصريرها المزعج ، الباص غير مكيّف، كان أوباما يحمل في يده حافظة طعام معدنية مستطيلة يضع فيها وجبة غذائه، ويعود في الساعة الخامسة مساء. كان الباص القديم كثير العطل والتوقف، فيضطّر جميع العمال إلى النزول لدفعه وإخراجه من الشارع إلى أقرب ساحة جانبية، وينتظرون حتى يتم إصلاحه أو يرسل إليهّم باصاً غيره. عندما يعود إلى السكن تبدأ المعاناة من جديد.
طابورٌ على الحمّام الوحيد.
طابورٌ على المواقد القليلة لصنع العشاء.
طابورٌ على المغتسل المهترء.

عندما يقذف أوباما بنفسه في الفراش ، ليس من السهل أن يتخذ النوم إليه سبيلاً في هذه الغرفة الصغيرة التي يشاركه فيها اثنا عشر شخصاً ، فهناك منهم من يرتفع شخيره كعواء الكلاب ومواء القطط، ومنهم من يكثر سعاله، ومنهم من ينتظر نومه ! إضافة إلى هدير المكيف المزعج الذي يبعث هواء ساخناً.

عندما يدسُ أوباما نفسه في فراشه المهترء وغطائه القذّر، يتذكّر صحراءه الرحبة عند الشيخ فهاد العايض، ومزرعته الكبيرة وغرفته الواسعة عند أبي ناصر، فيمتلئ قلْبه ألماً وحسرة وندماً ، ويتمنى لو يستطيع العودة إليهما.

❖❖❖

كان أوباما متربعاً على الحافة الرخامية للنافذة الداخلية، مسترسلاً في كتابه رسالة لوالده عندما صرخت عليه إحدى الموظفات:-

- حسين.. ألا تسمع ؟

قفز هلعا :-

- نعم .. نعم .. ماذا تريدين؟

مدّت إليه أوراقاً كثيرة :-

- اذهب بها إلى السجل العام . لا تتأخر.

عندما عاد لم يجد ورقته وقلمه. ازداد غيّظاً وقهراً .

في إحدى المرات ناداه أحد المراجعين . دَسَّ في يده ورقة صغيرة، وطلب منه أن يوصلها إلى إحدى الموظفات التي أرشده إليها ، مدّ إليه بورقة نقدية فئة نصف دينار. فهم أوباما مقصد الرجل الدنئ، غلى الدم في رأسه ، لحق بالرجل ، لم يستطع الإمساك به، لقد حشر

الرجل نفسه في المصعد الزجاجّي، بصق أوباما على الرجل ، مزّق قصاصة الورق والورقة النقدية ، ندّب حظه ولعن سوء طالعه.

❖❖❖

والدي، أشتاق إليك كثيراً وإلى والدتي، كيف أحوالكم جميعاً؟ أنا بخير . كما تعلم والدي من رسالتي الأخيرة، لقد انتقلت للعمل في إحدى شركات التنظيف الكبيرة، التي لديها عقود حكوميّة ضخمة. ظروف العمل فيها مريحة وأكسب مبالغ إضافيّة من الأعمال الممتازة وساعات العمل الإضافيّة إذا تَطلّب العمل ذلك.

والدي نحن مجموعة العمال نُشكّل عائلة واحدة، نشاهد التلفاز ونلعب الورق. نتشارك في إعداد وجبة العشاء الدسّم . نتسامر قبل النوم ثم نذهب إلى العمل صباحاً .

والدي العزيز أطمئنك على أحوالي، إنها تسير على خير ما يرام، لقد بدأت أحقق نجاحاً وأكون مبلغاً صغيراً متراكماً سأرسله لك في المرة القادمة. أريد أن أسأل والدتي.. كيف حال ابنة خالتي (سياو). بلّغوها سلامي.

والدي العزيز ستكون فخوراً بي . ثق من ذلك لأنك زرعت في الإيمان وحب الخير وبذور العدالة.

محبك ابنك باراك

❖❖❖

أوقف أوباما مسؤول سكن العمال البنغالي " أحمد ":-

- أحمد ..أريد راتبي، نحن مقبلون على نهاية الشهر ولم أستلم راتب الشهر الماضي.
- سوف تستلمه !
- متى ؟
- عندما تستلمه.

غضب أوباما :-

- أتستهزء بي ؟

لم ينتظر أحمد ليجيب على سؤاله . غادر سريعاً .لحق به أوباما. جذبه من كتفه، دفعه أحمد بقوة ليسقط على مجموعة من قدور الطبخ السوداء المتّسخة وسط ضحك بقية العمال في السكن. نهض أوباما ليلحق به . أمسك به عامل هندي ضخم الجثة كبير السن :-

- حسين إنك في مملكة البنغال ، سيجتمعون عليك .

لم يفلته حتى غادر أحمد المكان .

❖❖❖

في مساء اليوم التالي ، حضر سعيد مسؤول العمال إلى السكن، سأل عن أوباما. لم يجده في غرفته، بحثوا عنه في الخارج. عثروا عليه

جالساً عند البقالة الملاصقة للسكن، يحادث زميلاً له، ناداه أحدهم:-

- أوباما ... إن سعيداً يبحث عنك .

استأذن زميله ، رجع إلى السكن، وجد سعيداً ينتظره في المكتب:- .

- حسين. لديّ شكوى عليك من أحمد مسؤول السكن.
- لم أخطئ . لقد طلبت راتبي ولكنه ذهب وتجاهلني .
- لكنك جذّبته !
- لقد دفعني وأسقطني أرضاً .
- سأخصّم من راتبك هذا الشهر ثلاثة أيام أوباما ، نحن دائما نحتفظ براتب شهر لكل عامل، ونسلّمه الشهر التالي، ستقبض راتبك آخر الشهر (نظر إلى ساعته) بعد سبعة أيام.

وأضاف بهدوء:-

- تسكن مجاناً، وتذهب إلى عملك مجاناً، ماذا تريد ؟
- لدى التزامات !
- ليس لديك شيءُ .

ردّ أوباما بحدّه :-

- والأكل والاحتياجات الأخرى كالصابون والحلاقة ومصاريف الإجازة الأسبوعية ؟

- ليس هناك إجازة، مصروف الأكل يمكنك اقتراضه من أحد زملائك وتسدِّده نهاية الشهر، جميع العمّال مرغمون على عدم مغادرة السكن، ربما يطلبون في أي لحظة.. لا خيار لديهم أوباما.

رد أوباما بحده :-

- لا أريد عملاً إضافيّاً .. ولا أريد أجراً إضافياً.

أجاب سعيد ببرود :-

- لا يُدفع للعمّال على العمل الإضافي أجراً .
- هذا ليس عدلُ.
- إنه النظام.
- ليس عدلاً.

نفذ صبْر سعيد :-

أوباما لو كنت أحد العمال البنغال لتصرّفت معك تصرُّفاً آخر. أنني أُفضلك عليهم لأنك وحيد. لا تدفعني إلى التصرّف عكس ذلك.

صمت أوباما، أسند ساعديه على الجدار، وضع رأسه عليهما وأجهش في البكاء قهّراً. تركه سعيد وحيداً وغادر الغرفة. تجمع مجموعة من العمال حول أوباما يواسونه ويوضِّحون أموراً كثيرة قال أحدهم :-

- لن تستلم راتبك قبل أربع أو خمسة شهور، لقد حدث ذلك معنا.

وأضاف أخر :-

- لم نبعث لعائلاتنا أي مبالغ منذ أربعة شهور.

- يجب أن تصبْر.

عاد سعيد فجأة وصرخ في وجه العمال :-

- كل يعود إلى مكانه .. بسرعه.. بسرعه..

تفرق العمال وانحشروا داخل غرفهم.

طلب من أوباما أن يتبّعه إلى المكتب، جلس على الكرسي الخشبي. فتح أحد الإدراج الثلاثة للمكتب الحديدي الصغير، سحب ملفاً سميكاً. أخرج قائمة العمال وبدأ يقرأ الأسماء .

- أوباما .. أوباما ..آه لقد وجدّته، أعلم أنك جديدُ على العمل، لذلك سوف أُسلمك وحدك راتبك ، وستوقّع علي إقرارٍ باستلامه.

سحب سعيد محفظته من جيبه، فتحها. أخرج منها مبلغاً من المال دفعه إلى أوباما :-

- إليك اثنين وعشرين ديناراً.

أوباما مستغرباً :-

- ما هذا ؟

رد سعيد ببرود :-

- راتبك أوباما .

- راتبي خمسة وستون ديناراً.. العقد موجود.

- كلامك صحيح أوباما، يخصم منه عشرون ديناراً إيجاراً للسكن وخمسة عشر ديناراً مصروفات الانتقال بالباص يوميّاً،إضافة إلى

خصم خمسة دنانير شهريّاً قيمة التامين الصحي، وثلاثة دنانير كل شهر عن رسوم الإقامة ، بالإضافة إلى دعم صندوق الخاص بأنشطة الشركة .

رد أوباما بعصبية :-

- هذا غير موجود في العقد .
- العقد المقدم لوزارة الشئون لا يوجد فيه ذلك، ولكن العقد الذي وقعته مع الشركة موجود فيه كل ما ذكرت لك أوباما ، إضافة إلى توقيعك على أوراق خالية تدينك بمبالغ كبيرة، وتوقيعك على أوراق أخرى تثبت استلامك كافة مستحقاتك ورواتبك وبدل نهاية الخدمة وبدل المكافآت ... كل شئ كل شئ أوباما .
- أريد جواز سفري .
- يُسلمه لك المندوب في المطار إذا أردت المغادرة نهائياً إلى بلدك.
- لست على إقامة الشركة .
- لكنك تعمل لديها.
- لن أستلم.. لن أوقع ولن أعمل . لا أرغب براتبي لديكم.

رد سعيد بغضب :-

- ستندم أوباما ... ستندم .

خرج أوباما غاضباً يُردّد كلمات غير مفهومه. أحكم سعيداً إغلاق المكتب ثم خرج .

رجع العمّال مرة أخرى يتحلقون حول أوباما، يستفسرون منه عمّا حدث، وعاد سعيدٌ يفرِّقهم مرة أُخرى بصراخه عليهم ونهرهم ثم خرج.

عاد العمّال مرة ثانية يتحلقون حول أوباما ويسألونه :-

- ماذا حدث ؟
- حاول أن يعطيني أقل من ثلثيّ راتبي على أن أوقع باستلامه كاملاً.
- هذا ما يفعلونه معنا دائماً.
- ليس عدلاً .. ليس صحيحاً.
- ماذا نفعل ؟

رفع أوباما قبضته في الهواء .

- نتوقف عن العمل.. لا نذهب غداً إلى العمل.

التفت جميعهم نحو الباب، لم يَروا أحداً، أكمل أوباما بحماس واضح:-

- لن نركب الباصات. لنتحد ونتعاهد على موقف واحد .. لا عمل دون أجر عادل. صرف الرواتب في موعدها نهاية كل شهر. إنهم يستلمون مستحقاتهم من الوزارة نهاية كل شهر، لماذا لا يدفعون لنا رواتبنا ؟

تحمّس أخر :-

- نعم .. إنهم يستلمون مستحقاتهم كاملة من الوزارة.

و أضاف آخرُ:-

- نِعم الرأي ، هذا هو الرأي الصحيح !.

انتشر الخبر كالنار في الهشيم من غرفة إلى أُخرى من غرف البيت القديم بأدواره الثلاثة. تجمّعوا في غرفة أوباما. شكّلوا لهم لجنة من سبعة أشخاص ، اعدّوا مطالبهم بسرعة ،كتبوها في ورقة، قرأها أوباما عليهم ليتأكد من موافقتهم عليها :-

- انتظام الراتب وحسب العقد وتحويله إلى حساباتنا في البنوك استقطاعاً من حساب الشركة .
- تأمين السكن و الانتقال من السكن إلى مقر العمل مجاناً.
- تحسين ظروف المعيشة بتوفير سكن صحيّ ومريح .
- توفير دورات مياه كافية ونظيفة.
- رفض المعاملة القاسية واستغلال العمال والعاملات .
- عدم حجز جواز السفر.

سأل أوباما العمال المواجهين له :-

هل هناك شئ أخر لم نذكره .. هل أنتم موافقون عليها ؟

صاحوا جميعاً .

- موافقون.. موافقون.

نبّههم أحد العمال:-

- احذروا ... هناك من العمّال من سيبلغهم الخبر!

نسوا ذلك في خضَّم إنفعالهم وحماسهم :-

- ماذا في ذلك ؟

- سيأتون إليكم، ربما يبطشون بكم. سيفرّقون تجمعكم. ويرغمون الآخرين على العمل بالتهديد والوعيد.
- ماذا نفعل ؟

اقترح أحدهم :

- الساعة الآن الرابعة صباحاً . ساعة واحدة تفّصلنا عن بداية العمل، نغادر السكن الآن ونذهب إلى مقر الشركة ونعتصم أمامها أو نقتحمه. المقر ليس بعيداً، الطرق الآن خالية. سنصل المكتب الرئيس قبل وصولهم الينا.
- ماذا تقولون ؟
- نعم الرأي .

صرخ أوباما بحماس : -

اذهبوا إلى الباصات، كل سائق يتجه إلى باصه. من يتخلّف من السائقين أو يرفض اتركوه، المقرّ قريب، يمكن الذهاب إليه سيراً على الأقدام، لنذهب قبل قدومهم، لنسرع يا إخوة.

لم يمض نصف ساعة حتى أحاط مجموعة كبيرة من العمّال تصل إلى ثلاثمائة عامل مقر الشركة، والباقون ما زالوا في الطريق. انتشر الخبر. حضر مسؤول السكن أحمد ومسؤول العمّال سعيداً ومحاسب الشركة. شاهدوا الباب محطماً . أوجّسوا في نفوسهم خيفة. لقد حطّمه العمّال قبل وصول مندوبي الشركة.حاولوا تهدئتهم. كانوا غاضبين.

أحرقوا مجموعة أوراق وملفات في صالة المكتب.حاولوا تهدئتهم.لم يفْلحوا .. اضْطرب سعيداً . اتصل بصاحب الشركة. طلب حضوره فوراً .عاد مرة أخرى إلى العمال الهائجين :-

- اهدأوا. ماذا تريدون ؟ عودوا إلى سكنكم . سَنُحل موضوعكم.

رد أوباما :-

- نريد حضور صاحب الشركة.

استمر العمّال في تكسير زجاج المكتب وبعثرت محتوياته.

صرخ سعيداً :-

اهدأوا إنكم تدمِّرون كل شئ .

صاح أحد العمال .

- لقد دمّرتونا .
- ماذا تريدون ؟
- سنقول مطالبنا أمام صاحب الشركة.. أنتم لا يمكن أن تفعلوا شيئاً.

بعد خمسة عشر دقيقة حضر صاحب الشركة، كان يرتدي ملابس النوم، يرافقه ثلاثة من أبنائه. فوجئ بالدمار الذي أصاب مقر الشركة ، اندفع إلى الداخل مذهولاً. كان مكتبه محطماً . اندفع إليه العمّال مهاجمين. احتمى منهم سريعاً داخل إحدى الغرف، يتبعه مرافقوه

ومسؤولو الشركة. طلب أوباما من العمّال الثائرين الهدوء قليلاً، خاطب سعيداً :-

- دعه يخرج الينا . لا نريدك .
- ستندم أوباما .
- لا يهم ، دعه يخرج الينا .

دخل سعيد الغرفة، خرج مرة أخرى ومن خلفه صاحب الشركة، كان يحتمي به، قال سعيد :-

- لقد حضر صاحب الشركة..أنه أمامكم ماذا تريدون أن تقولوا ؟

تقدّم أوباما إلى صاحب الشركة، مدّ إليه الورقة ، حاول سعيدُ أخذها، دفعه أوباما عن طريقه وسلمها إلى صاحب الشركة :-

- هذه مطالبنا .. لن نتنازل عن أي شئ منها . لقد شكلنا لجنة من سبعة أشخاص. فوَّضوني بالحديث عنهم. مدّها إلى صاحب الشركة.

أطلّع عليها سريعاً ، دسّها في جيبه .

لم تمض دقيقة واحدة حتى سمع الجميع أبواق سيارات قوة الأمن بأضوائها المميّزة الخاطفة، أحاطت قوة الأمن بمقر الشركة وطوّقوا المكان من كل صوب، وانهالوا على العمال ضرباً بالهراوات لتفريقهم، حاولوا مقاومتهم. لم يفلحوا، زجّوا بهم داخل الباصات التابعة لقوة الأمن. بعض العمّال استطاعوا أن يهربوا، عادوا إلى السكن.

أشار صاحب الشركة إلى أوباما :-

- إنه زعيمهم.. إنه من قام بتحريضهم، كانوا طيبّين قبل أن يعمل هذا الغراب بالشركة، اسجنوه.. اضربوه .

اقتاد رجال الأمن أوباما وعشرة عمّال آخرين معه، ودفعوا بهم في سيارة سوداء اللون مغلقة الأبواب والنوافذ، ثم غادروا إلى مقر الأمن .

امتلأت غُرف الحجز بمركز الشرطة بالعمّال المضربين عن العمل. عزلوا أوباما وأصحابه في غرفة منفردة، وأمروا الجميع بكتابة تعهّد عدم إثارة الشغب مرة أخرى، والعودة إلى العمل فوراً، تدافع العمال بخوف وهلع شديدين . وقّع كل واحدٍ منهم على الإقرار المطلوب .

نادي رئيس المركز على أوباما ورفاقه :-

- أنتم تختلفون عن الآخرين . ستوقّعون على إقرار بتحمُلكم جميعاً ما قمتم بإتلافه من مكاتب الشركة وأوراقها، على أن يُخصَّم من رواتبكم أو مستحقاتكم .

نظر إلى أوباما دون شفقة :-

- أنت أيها المارق الأسود . سوف تُحجز عدّة أيام عقاباً لك.

تدافع العمّال العشرة لتوقيع الإقرار وتركوا أوباما وحيداً، أمر رئيس المركز أحد أفراده بإعادة أوباما إلى غرفة الحجز مرة أخرى.

❖❖❖

حضر أبو ناصر إلى مركز الشرطة بعد يومين، وأخرج أوباما لأنه ما زال على كفالته وأعاده معه إلى البيت، لم يسأله عن الكدمات واللكمات البادية على وجهه لأنه يعرف كيف حدثت ومما جاءت.

كان أوباما شديد الفرح بتحريره من حجزه، ولكنه كان حزيناً على تجربته المريره وتخلي العمال عنه .

❖❖❖

وصل أبو ناصر ومعه أوباما إلى البيت. ورحَّبوا به جميعاً فرحين بعودته وبدأوا يسألونه عما حدث له، قاطعهم أبي ناصر :-

- دعوه الليلة أنه متعب .. دعوه يستريح، غداً إسألوا عن كل شئ.

وطلب من أوباما أن يذهب إلى غرفته .

لم يستطع أوباما في تلك الليلة أن ينام رغم الإرهاق والتعب اللذين أصاباه. كان يُفكِّر في كل ما حدث له. شَكرَ اللّه الذي ساعده للخروج من هذه المحنة. عاد أوباما لعمله السابق، يغّسل السيارات، يُعدّ الشاي والقهوة ويقدِّمه لأبي ناصر وضيوفه وأصحاب أبنائه حتى ساعة متأخرة من الليل، ثم يخلد إلى النوم ويعود إلى عمله من جديد بداية صباح كل يوم.

❖❖❖

كان أبو ناصر يجلس في ديوانه كعادته مساء كل يوم وكان أوباما يصب له القهوة. حضر ابنه ناصر فرحاً.

- أبي .. أبي . لقد تم قبولي في برنامج البعثات الخارجية.
- الحمد لله يا ناصر .. الحمد لله . تستاهل كل خير ، ماذا ستفعل؟

رد ناصر بثقة :-

- سأُكمل دراستي في الأكاديميّة البحرّية بالإسكندريةّ مع زملائي.
- لقد خططت لكل شئ .. لا بأس. ولكن من الذي سوف يعتني بك وأنت هناك . أنت لا تستطيع أنت تخدم نفسك. أنت لا تستطيع أن تُعدّ كوباً من الشاي (ضاحكاً).
- زملائي الذين سأذهب إليهم يملكون شقةً ، ولديهم عجوزاً تخدمهم أيضاً.
- لا أريد أن تسكن مع أحد. لست بحاجة إلى ذلك .
- إنهم يفعلون ذلك، كل ثلاثة أو أربعة طلاب يسكنون في شقة واحدة، يتقاسمون إيجارها والمصاريف والأخرى.

رد والده ساخراً :-

- ويُضيّعون أوقاتهم .
- لا .. لا يا أبي .

بحده :-

- ناصر ... اسمع، لدى اقتراح سوف ترضى عنه .
- ما الاقتراح يا أبي ؟
- تأخذ معك أوباما إلى مصر.

نظر أبو ناصر إلى أوباما وسأله :-

- ما رأيك أوباما ؟

رد أوباما دون تفكير :-

- موافق عمي ... موافق أن أذهب مع عمي ناصر إلى أي مكان يذهب إليه.

❖❖❖

غادر ناصر وخادمه أوباما إلى الإسكندريّة ظهراً على رحلة الخطوط الكويتية . كان ناصر يقرأ إحدى الجرائد وأوباما يقاطعه.

- متى نصل إلى الإسكندريّة ؟
- بعد ثلاث ساعات، حاول أن تنام.
- كيف ؟
- أغمض عينيك .
- ربما سقطت الطائرة .
- دعها تسقط . ماذا ستفعل إذا سقطت وأنت صاح .
- أتشهّد . أُكثر من الدُعاء.
- أدع وتشهّد ، ثم حاول أن تصمت .
- أُريد ماء.
- اطلبه من المضيف.
- كيف ؟
- حسبي اللّه ونعم الوكيل، سأطلب لك ماء.

ضغط ناصر على الجرس الخاص بنداء الخدمة.

❖❖❖

أنهى ناصر إجراءات خروجهما من مطار النُزهة، وعند صالة الوصول كان صديقه يوسف ينتظره، أشار إليه بيده، اتجه ناصر إليه، عانقا بعضهما :-

- حمداً للّه على سلامة وصولك يا ناصر . مرحباً بك في الإسكندريّة.
- أشكرك على انتظارك لنا .

نظر إلى أوباما وإلى يوسف:-

- أوباما .. هذا يوسف صديقي . هو الذي أعد لنا الشقة التي سوف نسكن فيها. وهذا أوباما جاء معي ليساعدني خلال مدة إقامتي.
- أهلاً بكما .. أهلاً .

خرج الثلاثة من المطار واستقلوا سيارة يوسف . أثناء الطريق كان أوباما يقاطعهما وهما يتحدثان ، كان يسأل ناصر عن كل شئ يراه، تضايق ناصر ، التفت إليه :-

- أوباما .. اصمت . لا أريد أن أسمع صوتك حتى نصل.
- حاضر عمي .

وصل ناصر إلى شقته مع أوباما . رتّبوا أغراضهم في الشقة، كان يوسف قد جهَّزها بكل ما يحتاجونه من أكل وشرب وأغراض أُخرى.

نهض ناصر صباح اليوم التالي، وجد أوباما قد أعدّ الشاي والحليب وإفطاراً خفيفاً، ووضعه على طاولةٍ مستطيلةٍ في الصالة الصغيرة.

- أحسنت صنعاً أوباما ، إنني جائع .

أنهى ناصر إفطاره . أخذ مغلّفاً أصفر كبيراً في يده :-

- أوباما أكمل إفطارك. سأذهب إلى الجامعة. لا تخرج.. أنت لا تعرف شيئاً هنا ربما تضيع لو خرجت وحدك.
- حاضر عمي .
- كل ما تحتاجه موجوداً في الشقة .. التلفاز، الثلاجة مملوءة بالأكل والشراب والكاكاو الذي تحبه (ضاحكاً) .
- حاضر عمي !

ذهب ناصر وأغلق الباب خلفه ليستكّمل إجراءات التحاقه بالأكاديميّة العربيّة للعلوم والتكنولوجيا والنقل البحري التي سيكْمل دراسته فيها. صَدَق أوباما في الأيام الأولى فلم يخرج من الشقة . ولكنه لم يصْدق في الأيام التالية. فما أن يخرج ناصر صباحاً حتى ينزل إلى الشارع يقف عند السوبر ماركت الصغير، يحادث صاحب المغسلة اليدوية و بائع الجرائد ، يجلس قليلاً في إحدى المقاهي الثلاث المتراصّة على الشارع. يخرج مع ناصراً في المساء إلى الأسواق والمقاهي الكبيرة والكازينوهات والحدائق العامة .

لقد أعجبته الحياة كثيراً في الإسكندريّة وخصوصاً منطقة ميامي التي يسكن فيها ، لقربها من الأكاديميّة ، ولوجود عددٍ كثيرٍ من

المقاهي والمطاعم التي تقدم الأطعمة الخليجيّة المشهورة التي يعشقها كثيراً، إضافة إلى الأطعمة المصرية الشعبية والنارجيلة . أصبح أوباما يعرف أغلب أحياء الإسكندريّة . كان ناصر يصحبه معه لزيارة معالم الإسكندرية الشهيرة كقلعة قايتباي، قصر المنتزه، حدائق الشلالات، المسرح الرومانيّ، مكتبة الإسكندرية، الشواطئ البحرية.

لفت انتباه أوباما تماسك الشعب المصري وترابطه. كل المظاهر التي أمامه تؤكد ذلك، يتساعدون في نقل الأحمال الثقيلة، يسارعون لمساعدة المعاقين وكبار السن والأطفال لعبور الشارع أمام السيارات . كانوا بسطاء وكرماء . يتسارعون لدفع ثمن ما يشترون وما يأكلوه في المقهى.

في إحدى المرات كان أوباما يجلس وحده بالمقهى . مر به رجل كبير السن ، بادره :-

- لماذا تجلس وحدك ؟
- لا أعرف أحداً .
- أين تسكن ؟
- في المبنى المقابل .

جذبه الرجل من كتفه :-

- قمْ .. قمْ معي إلى البيت، سنتناول الغذاء سوياً.

حاول أوباما أن يعتذر أو يرفض ولكنه لم يستطع . أذعّن أوباما تحت إصرار الرجل وذهب معه إلى بيته حيث قدم له وجبة عامرة، شاركه فيها مع أبنائه. لقد تركت هذه الحادثة أثراً شديداً في نفس أوباما .

❖❖❖

كان ناصر مستلقياً على الكرسي الطويل في الصالة يقرأُ كتاباً، بينما كان أوباما يشاهد التلفزيون دون صوت. شاهد أوباما منظراً لرجال الأمن يحملون دروعاً واقية وهراوات، يضربون بها مجموعة من المدنيين اللذين يهاجمونهم بقوة وعشوائية، التفت إلى ناصر :-

- عمي ناصر .. عمي ناصر .
- نعم ؟
- ما هذا ؟ انظر إلى التلفزيون .

اعتدل ناصرُ في جلسته:-

- إلى ماذا أنظر يا أوباما ؟
- أنظر .. إنهم يضربونهم بقسوة .

ضحك ناصر :-

- لقد تعرَّضت لمثل هذا الموقف عندما قدّت العمال المضربين في الكويت. هل تتذكر ذلك الموقف؟

صمت أوباما ولم يجب .

- ارفع مستوى الصوت، دعنا نستمع إلى ما يقوله المذيع.

« هـذا وقـد قامـت مجموعـة مـن رجـال الأمـن بتفريـق المتظـاهـرين اللـذين يرفعون شعارات معادية للحكومة، ويطـالبون بانتخابات نزيهـة تسودها العدالة والشفافيّة، ويدعون إلى محاربة الفساد، مطالبين بزيادة الرواتب وتحسين ظروف المعيشة، وقد قامت قوات الأمن بتطويق المتظاهرين وطلبت منهم التفرّق لكنهم لم يستجيبوا لندائها، مواصلين تقدمهم مما دفع قوات الأمن إلى مواجهتهم بقوة مستخدمين خراطيم المياه والقنابل المُسيلة للدموع والهراوات. لقد بدأت المظاهرة من أول شارع طلعت حرب مروراً بميدان التحرير حيث تجمّع عشرات الألوف من المتظاهرين منذ الصباح الباكر مُلبين دعوة جماعة الأخوان المسلمين المحظورة وبعض الأحزاب السياسية الأخرى ».

وأضاف المذيع:-

« قبل ثلاثة شهور، اندلعت مظاهرة مماثلة، انطلقت من شارع القصر العيني وكانت تطالب بخفض أسعار الحديد التي قفزت قفزاً جنونياً، تضاعفت عدة مرات نتيجة احتكار الحديد من قبل مقربين من السلطة، وقد عَبّر المتظاهرون عن غضبهم حاملين اللافتات التي تتهم الحكومة بالتواطؤ ضد مصلحة الشعب ، والآن إليكم التقرير التالي عن ارتفاع أسعار الحديد والذي أعده حامد عيدان ».

« شهدت أسعار الحديد في الفترة القليلة الماضية إرتفاعاً سريعاً وملحوظاً أدى إلى توقف كثير من المشاريع الإسكانية ، وبالتالي

تسريح أغلب العمال اللذين قَبعوا في منازلهم لا يملكون قوت يومهم، وتشريد كثير من العائلات التي لم تستطع أن تجتمع للظروف المعيشية الصعبة، وقد بذلت الحكومة جهوداً جادة لحل هذه المشكلة، لكنها لم تستطع السيطرة على الأسعار لإصرار بعض المنتفعين على احتكاره وتكديسه في المخازن بكميات كبيرة، وعدم بيعه إلا بكميات قليله على دفعات سعياً وراء رفع أسعاره لتحقيق مكاسب طائلة على حساب قوت الشعب. عودة مرة أخرى إلى أستوديو الأخبار الرئيسة. كان معكم من القاهرة مراسلنا حامد عيدان».

غادر أوباما الشقّة كعادته كل يوم عندما يخرج ناصر للأكاديميّة، وجلس على إحدى المقاهي القريبة من البناية التي يسكنها يحتسي الشاي ويدخن النارجيلة التي عشقها، لفت انتباهه صوت أحد الجالسين بقربه، كان يقرأُ جريدة يومية، رفع صوته بعصبية وضرب بيده على الطاولة :-

- بص يا محمود .. اقرأ .. اقرأ ..
- ما هو أنا بقرأ كل يوم ، هو فيه أيه غير الهم والحوادث والسرقات.
- زيادة أسعار.. الحكومة عازية ترفع أسعار الوقود والمحروقات في العام القادم .
- العام القادم ؟ المرة دي قويّة .. هو العام القادم باقي كم يوم عليه. هم عايزين يخدعونا . ماهم لسه رافعين أسعار الخضار والخبز.

أشاح محمود بوجهه وسحب نفساً عميقاً من النارجيلة التي أمامه:-

هات .. هات الجريدة.. ممكن يكون فيها حاجه.

- آه فيها حادثة سطو على محطة غسيل .
- هيعملوا أيه معاهم .. شباب عاطل بلا عمل، لازم يفكّروا في شئ يعملوه.
- الحكومة مش مهتمة بيهم . عايزين يتجوزوا ..ويخلفوُا.
- بلاش جواز .. خليهم يعيشوا ما هم جالسين في البيت وعاملين مشاكل أو يخرجوا يعملوا مشاكل أيضاً. هيعملوا أيه.

انتبها لحديثهما العالي ، قال زميله:-

- محمود.. اضبط نفسك .
- وهو أحنا قلنا حاجة.
- لا ما قلناش.

أُعجب أوباما بالحياة في الإسكندرية واعتاد على صراخ الباعة لجذب الزبائن ، وكذلك الباعة المتجولين فمنهم من يحمل بضاعته فوق رأسه ، ومنهم من يدفع عربته أمامه، ومنهم يعلقّها على كتفه، ومنهم من يفترش الأرض.َشربَ أوباما العرقسوس وأكل الِلب والفول السوداني وعلّق في رقبته أطواق الفل والياسمين، دخّن النارجيلة، عاش ببساطة ويُسر . تَمنّى أن تطول إقامته في الإسكندرية.

❖❖❖

في أحد الأيام كعادته بعد ذهاب ناصر إلى الأكاديميّة، خرج أوباما إلى الشارع، لكنه في هذا اليوم ابتعد عن المنطقة التي يسكنها

إلى أن وصل إلى ميدان المنشيّة، وقد لفت انتباهه تجمّع عدد كبير من الناس يهتفون ضد الحكومة، يحملون اللافتات التي تتهم الحكومة بتزوير الانتخابات وتُندد بمنع أعضاء جماعة الإخوان المسلمين من الترشح في الانتخابات . وكانت قوات الأمن تغلق مخارج ومداخل الشوارع الرئيسة بإعداد كبيرة محاولة منع امتداد المظاهرة إلى الأحياء القريبة الأخرى. حاولت قوات الأمن التصدي للمتظاهرين ومنعهم من التقدم ، إلا أن المتظاهرين واصلوا زحفهم، مما أستدعى قوات الأمن أن تستخدم الهراوات والغاز المسيل للدموع وخراطيم المياه الحارة لتفريق المتظاهرين، وشرعت في القبض على كل من يقع في أيديهم والزّج به داخل سيارتهم الضخمة، كان أوباما ولسوءِ حظ كان متواجداً وسط الموج البشري فتم القبض عليه وزّج به في إحدى السيارات العسكرية دون أن يفقه ما يدور حوله .

امتلأت مقار الأمن بالذين تم القبض عليهم وزّج بهم في غرف الحجز، وبدأوا يستدعونهم واحداً تلو الأخر للاستجواب، جاء الدور على أوباما الذي ظهر مرهقاً ومذهولاً أمام المحقق:-

- ما اسمك ؟
- أوباما !
- ما جنسيتك ؟
- من كينيا

- أين تسكن ؟
- لا أعلم.
- أنت تكذب .
- .....
- ما سبب وجودك بالإسكندريّة ؟
- جئت مع عمي ناصر لأقوم علي خدمته.
- ما علاقتك بجماعة الإخوان المسلمين ؟
- لا علاقة لي بأحد.
- هل تتبع تنظيم القاعدة ؟
- لا... ليست لي علاقة بأي تنظيم.
- نحن نعلم أنهم متواجدون بقوة في كينيا، وخاصة بعد تفجير السفارة الأمريكية بنيروبي عام 1998.

اخرج أوباما ورقة صغيرة من جيبْه . قدَّمها للمُحقق الذي لم يأخذها، أعادها إلى جيبْه، صرخ المحقق على العسكري الواقف منتصباً عند الباب:-

- عدْ به إلى الحجز .

في اليوم التالي، استدعوا أوباما مرة أخرى ، قال له المحقق وهو يقرأ الورقة التي أمامه ببطء.

- باراك أوباما حسين . كينّي، قادمُ من الكويت مع كفيلك. عملت راعياً في المملكة العربيّة السعوديّة، ثم عامل تنظيف بدولة الكويت. قُمت بقيادة مظاهرة عماليّة . تم احتجازك خلالها، ثم أُفرِجَ عنك بعد حضور كفيلك... ما قولك ؟
- صحيح...
- وها أنت مرّة أخرى تشارك في أعمال شغب، أليس كذلك ؟
- لا ، كنت أسير في الشارع.
- كنت تشارك في المظاهرة.
- لا .. لا ، لم أشارك .
- أنت تكذب !
- كنت أسير في أحد الشوارع، بالقرب من الميدان، أتفرّج على واجهات المحلات، سمعت الهتافات من بعيد، وشاهدت أشخاصاً مجتمعين، ذهبت لأستطلع الأمر فتم القبض عليّ دون أن أعلم شيئاً.
- أين تسكن ؟
- لا أعلم . ولكن لديّ ورقة فيها العنوان، سجّله لي عمي ناصر.

أخرج أوباما ورقة صغيرة من جيْبه، كتب فيها اسم كفيله ورقم هاتفه، قدمها إلى المحقق :-

- هذا عنواني واسم كفيلي .

أمر المحقق الشرطي بإعادته إلى الحجز مرة أخرى ، وطلب إحضار كفيله.

❖❖❖

حضر ناصر إلى مقر الأمن مساءً وجلس في غرفة ضابط المركز الذي استفسر مرة أخرى عن كل شئ بالتفصيل، وحكى له ناصر عن سبب قدومه إلى الإسكندريّة وسبب حضور أوباما معه. مرّت دقائق قليلة قبل أن يدخل عليه أوباما، يجرّه الشرطيّ من ذراعه . سأله المحقق:-

- هل هذا تابعك ؟

هز ناصر رأسه :-

- نعم .. نعم .. إنه أوباما.

قال المحقق :-

- وقّع على هذه الأوراق واستلمه .

نهض ناصر من الكرسي، اقترب من مكتب الضابط. وقَّع أسفل الورقة ثم جَذب أوباما من ذراعه خارجاً .

في الطريق إلى الشقة، وبَّخ ناصر أوباما توبيخاً شديداً. عنَّفه بقسوة:-

- ألم أقل لك لا تخرج ؟ إنني أعرف كل شئ . كنت تغافلني وتخرج.

رد أوباما نادماً :-

- عمي .. لن أخرج مرة أخرى.

❖❖❖

في أحد الأيام قرّرَ ناصر الذهاب إلى القاهرة واصطحب معه أوباما. استْقّلا القطار السريع في رحلته الصباحية بين الإسكندريّة والقاهرة. كان القطار يشق طريقه بين الحقول الخضراء بسرعة كبيرة زرعت الرعب في قلب أوباما. غادرا محطة القطار ، فوجئ أوباما بطوفان بشري يملأ الشوارع فبادر ناصراً بالسؤال :-

- عمي ... زحمة كبيرة.
- لم تر شيئاً بعد . نحن في قلب القاهرة .

استْقّلا سيارة أجرة لتقلّهم إلى أحد الفنادق الموجودة بميدان التحرير. وضعا حقائبهما في الفندق ثم غادرا واتّجها إلى منطقة الأهرامات ، وما أن رآها أوباما حتى صعق وسأل ناصر :-

- عمي ... عمي ناصر ما هذا الشئ الضخم ؟
- إنها الأهرامات. إحدى عجائب الدنيا ، لقد قام ببنائها الفراعنة لتخليد ذكراهم.
- إنها جميلة جداً عمي، لم أرى مثلها من قبل.

بعدما انتهى ناصر وأوباما من زيارة الأهرامات ، توجها إلى أحد المطاعم التي تُقدِّم الأطعمة المصريّة المشهورة لتناول الغداء والتي أعجبت أوباما كثيراً . في المساء تَوجّه الاثنان إلى كورنيش النيل وشاهدا تزاحم الناس على جانبيّ النيل ، والمطاعم الكثيرة والباعة المتجولون ، والأضواء المتلألئة الجميلة التي تضئ المكان واستّقلا إحدى السفن

السياحية التي تبحر في النيل في جولة نهريّة، بعد ذلك قال ناصر لأوباما:-

- لنعد إلى الفندق الآن، يجب أن نصّحو مبكرين غداً. سنعود إلى الإسكندريّة .
- عمي لا أريد أن أغادر القاهرة، إنها ساحرة، لماذا لا نعيش فيها ؟
- لا يوجد فيها فرعاً للأكاديميّة التي أدرس بها.

في اليوم التالي عادا الاثنان إلى الإسكندريّة وسط حزن أوباما لمغادرة القاهرة .

❖❖❖

عاد ناصر في أحد الأيام إلى الشقة فرحاً، ما كاد أوباما يفتح الباب حتى اندفع ناصر مسروراً، أخذ يرقص داخل الصالة ويُصفِّق بيديّه، ويدور حول نفسه ، وقف أوباما مذهولاً ومندهشاً . توقف ناصر عن الرقص . سأله أوباما :-

- أراك فرحاً .. أخبرني عمي .
- سنغادر الإسكندريّة إلى بيروت بعد ثلاثة أيام، استعد لذلك.

سأله أوباما :-

- هل أنا السبب في ذلك عمي ؟ أعلم إنني السبب في ذلك ! لقد سَبّبت لك مشاكل كثيرة في الفترة الأخيرة .

اقترب منه ناصر . هزّه من كتفيه برفق:-

- لا أوباما .. لقد طلبت تحويل دراستي إلى بيروت فجاءت الموافقة بسرعة، الحمد لله.. الحمد لله .
- لقد أحببت الإسكندريّة يا عمي.

ضحك ناصر :-

- ستُحب بيروت أيضاً .
- ماذا أفعل في بيروت ؟
- سترافقني .. ماذا كنت تفعل هنا ؟
- أقوم على خدمتك.
- هناك أيضاً ستقوم على خدمتي، وستخرج إلى الشارع كعادتك عندما أخرج ، وتُقسِّم لي إنك لم تغادر الشقّة. أليس كذلك ؟

شعر أوباما بأنه قد وقع في الفخ ، ابتسم .

قال ناصر مداعباً :-

- ماذا أعدّدت للغداء ؟
- كل خير يا عمي .
- احضره .
- حاضر عمي .

كانا يتناولان الغداء ، سأله ناصر :-

- أوباما هل أحببت الإسكندرية ؟

هزَّ رأسه ورفع حاجبيه إلى أعلى :-

- لقد أعجبتني كثيراً ، ماذا سأفعل هناك ؟ لا أعرف أتكلم بيروتي

ضحك ناصر :-

- بيروتي ؟ لبناني يا مُغفَّل ... إِفْهَم .
- آه فَهِمت .. فَهِمت .

صرخ ناصر فجأة :-

- اسمع ... لديّ مفاجأة لك .
- ما هي ؟
- سأجِّد لك مشروعاً تقضي فيه وقت فراغك أثناء تواجدي في الجامعة.
- مثل ماذا عمي ؟
- لا أعلم، دعْنا نرى الأُمور هناك، سنغادر بعد ثلاثة أيام .

لم ينقطع أوباما عن سؤال ناصر عن المشروع الذي سوف يعِّده له كل لحظه ، نَهره ناصر :-

- أوباما .. أُقسِم بالله إن لم تتوقف عن إزعاجي بالسؤال كثيراً فلن أنفِّذه لك.

صمت أوباما خائفاً ، ولكنّه لم يستطع أن يتوقف عن الحلم بالمشروع.

❖❖❖

وصل ناصر وأوباما بيروت مساءً، على متن خطوط طيران الشرق الأوسط، كان الجو جميلاً وغائماً، يتساقط رذاذ المطر بهدوء. تفاءل أوباما :-

- هذا الجو فأل خير وسعد ... إن شاء الله تنجح في دراستك .
- أسمع أوباما ... لن أسمح لك بتكرار ما حدث في مصر .
- حاضر .. حاضر عمي .
- دعني أُكمل.. سوف أُنفذّ وعدي لك بإيجاد مشروعٍ تعمل فيه الفترة الصباحية فقط .
- حاضر .. حاضر عمي . متى ؟
- أوباما .. أعلم إنك لن تتركني حتى أُنفذّه لك. أنت لحوح يا أوباما.
- وأنت وفيّ يا عمي . ضَحك أوباما .

مر شهران على وجودهما في بيروت. كان ناصر يتردد على الجامعة الأمريكية، يخرج وحده غالباً منذ الصباح ويعود منتصف الليل، وأحيانا أخرى يَصحبُ أوباما معه. الضجر واليأس والملل يحطِّمون أعصاب أوباما . ولكنه لا يستطع أن يفعل شيئاً لقد وعده ناصر وعليه الانتظار.

❖❖❖

دخل ناصر الشقة فرحاً. صرخ مازحاً :-

- أوباما .. أوباما .. قَبِّل رأسي .

جاء أوباما فزعاً ، أمسك رأس ناصر وَقبَّله .

- ما الأمر عمي ؟
- لقد وجدتُ لك مشروعاً .
- حقيقي ؟
- نعم ! .. وستدعو لي كثيراً

أضاف ضاحكاً :-

- لا تنس أنا شريكك .. وسأسامحك إذا سرقتني.
- ما هو ؟
- لقد اشتريت لك كشكاً صغيراً .

استلم أوباما مشروعه الجديد ،كشكاً صغيراً جداً لبيع السجائر والشكولاته والمرطبات الخفيفة والفول السوداني، لا تتجاوز مساحته المترين، يقع على زاوية الشارع ، مجرد خزانة خشبية طولها متر ونصف وعرضها متر واحد، ترتفع عن الأرض متراً واحداً أيضاً، يحيط بها حاجز زجاجي بارتفاع عشرون سنتيمتراً، ذات أدراج مستطيلة، صف عليها علب السجاير والبسكويت وألواح الكاكاو، وأكياس بلاستيكية صغيرة مملوءة بالفستق والفول السوداني، ويقع خلف أوباما أثناء وقوفه ثلاجة طويلة، صُف على أدراجها قناني المشروبات الغازية والمياه المعدنيّة وعلب العصير المختلفة. كان يرجع كل يوم فرحا ..

يُحدِّث ناصر عن كل ما يحدث أمامه.. ويخبره بالأحاديث التي سمعها، وعن شجار الأشخاص على الرصيف لجذب الزبائن .

كان أوباما سعيداً وهو يعدُّ نقوده القليلة :-

- عمي ناصر .. عمي ناصر، لقد أصبحت ثرياً .

يضحك ناصرُ :-

- أتقرضني بعض المال ؟
- لا .. سوف أعطيك جزءاً منه لتحفظه لي وتشتري به بعض الأغراض التي أحتاجها والتي لا يستطيع أحمد إحضارها.
- أحمد .. من هو أحمد ؟
- أنه الشخص الذي يقوم بتزويد أغلب البقالات والأكشاك في الشارع بالبضائع التي يحتاجونها.
- والله صرت تعرف كل شئ أوباما !

سارت الحياة في بيروت رائعة لكليهما . ينهض أوباما مبكراً أو متأخراً ليعدُّ الإفطار حسب جدول ناصر الدراسي . يتناولان الإفطار ، يذهب ناصر للجامعة ويوِّصل أوباما إلى كشكه الصغير . يعود أوباما إلى الشقة قبل عودة ناصر بفترة كافية لإعداد الغداء أو العشاء .

لم تطل فرحة أوباما . البلاد تعيش حالة غليان لم يُشهد لها مثيلاً. فرقاء الصراع حزب الله وقوى 14 آذار يتبادلان الاتهامات والتهديدات. الكل يتوعد . الكل يهدد .

كلاهما قابع في الشقة، ناصر قلق على دراسته التي عطّلتها الأحداث وأوباما قلق على كشكه الصغير ، يجمعهما مكان واحد ويفرقهما همٌ مختلف، لا يستطيع أحدُ منهما الذهاب إلى جهته. وكان أوباما يتابع الأخبار باهتمام وقلق بالغين . كشكه الصغير – لسوء طالعه – يقع في منطقة الخطر . وناصر لا يتوقف عن مضايقته وتخويفه:-

- ستعود فقيراً أوباما .. هذه الحياة لا تدوم لأحد.
- عمي، أنني أختنق ، لا تخنقني أكثر من ذلك .
- إنني أُداعبك .. ستتحسن الأمور إنشاء اللّه .
- عمي ... لقد بدأت المظاهرات والتدمير في الشوارع.
- لا .. كل شئ تحت السيطرة.

تداعيات اغْتيال الحريري ما زالت تغذي هذا الغليان. الانفلات السياسي، المحكمة الدولية، الصراع السياسي جميعها تشكل مدخلاً كبيراً لحرب أهلية قادمة.

الاستقالات والاغتيالات تعطل المؤسسات الدستورية .

تدخلات خارجية وإقليمية. أزمة رئيس. سلاح حزب اللّه. قطع خطوط الهاتف . كل ذلك وأشياء أخرى تؤجج الصراع وتدفع به إلى الذروة .

مظاهر التصادم تطفو على السطح.

إطلاق نار كثيف في منطقة الكولا والمدينة الرياضية ...

قذائف صاروخيّة في النويري وبربور ...

اشتباكات في كورنيش المزرعة ...
انفجارات في رأس النبع ...
إحراق السيّارات والإطارات...

السيّارات تُفرِّغ حمولتها من الأتربة لقطع الطرقات المؤدية إلى المطار.
رئيس الوزراء والوزراء يقبعون في المقرّ الحكوميّ (السرايا) المتوقع اقتحامها. حالة الطوارئ ربما تعلن في أي لحظة . حزّب اللّه ومناصريه يحكمون قبضتهما على المنطقة المحيطة بالمطار، ويقطعون الطرق المؤدية إليها.

الموالين للحكومة يتبادلون إطلاق النار مع مناصري حزّب اللّه وحركة أمل. مسؤول في مطار بيروت يعلن إلغاء جميع الرحلات الجويّة. الحدود اللبنانية – السوريّة تشهد تدفُقاً بشريّاً واختناقات مروريَّة .

مطار دمشق يختنق بالمغادرين القادمين من لبنان، ويشهد حركة كثيفة وازدحاماً شديداً لم يُشهد له مثيلُ.

تراجع الحكومة ضمنيّاً، يدفع الجيش للتنسيق مع المعارضة لترتيب حل الأزمة وسحب المسلّحين من الشوارع وفتح الطرقات.

هدأت الأوضاع. أعلن الجيش عن انتهاء الأزمة وزوال الخطر وتراجع كافة الأطراف المتنازعة إلى مواقعها السابقة، وَطلب من الجميع التزام

الهدوء والحيطة ومساعدته في إزالة الحواجز والسواتر الترابية والرمال والحجارة من الشوارع. خَرج أوباما ظهر اليوم مع عمِّه ناصر ليتفقدا كشكه الصغير. وجداه مدمّراً ومنهوباً. بكي أوباما حسّرة وحّرقة على خرابه . حاول ناصر إسكاته :-

- لا تحْزن ، انظر من حولك، كل شئ مدمّر .
- عمي .. كان الكشك حياتي ...
- سأعد لك كشكاً أفضل منه في مكان أخر.
- لا ... لقد تعودّت على هذا المكان . وقفلا راجعين إلى الشقة .

خرج ناصر عصراً لزيارة بعض زملائه للوقوف على الأوضاع وسؤالهم عن الدراسة . وخرج أوباما إلى كشكه مرةّ أخرى. جلس فوق بقاياه مكسوراً . يغطي وجهه بكفيّه . صديقه أبو قُتيبه بوجهه الأبيض النحيف وعينيّه الصغيرتين ولحيته الطويلة وشعر رأسه الكثيف، يربت على كتف أوباما ، رَفع رأسه:-

- ماذا حدث أوباما؟
- لقد دمّروه . لم أعدْ أملك شيئاً.
- حسبي الله ونعم الوكيل ..كنّا نجتمع عند الكشك ، كان يغنيناً عن الذهاب إلى المتجر البعيد . ماذا ستفعل الآن ؟
- لقد قُضيَّ علي يا أبا قُتيبة. لقد كان مصدر رزقي . عرفتكم وعرفت الآخرين وعرفت الشارع من خلاله.

ثم أنخرط في بكاء موجع.

- لا تحزن .. هيا انهض... سيُعوضَّك اللّه خيراً منه.

مّد يده إليه . جذبه إلى أعلى ، نهض أوباما ، ركب الرجلان السيارة، تجّولا بين الإحياء المدمّرة وركام المباني والغبار ، حاول أبو قُتيبة أن يرفّه عن صديقه أوباما :-

- هل تذكر ذلك اليوم الذي جاء فيه إليك رجل يصطّنع العرَج. وبعد أن أعطيته ما طلب. فرّ راكضاَ ولم يدفع لك نقوداً.
- أذكر .. أذكر .
- والمرأة التي سَرقت نقودك التي كنت تُخفيها في علبة المحارم الورقيّة الفارغة؟

ضحك أوباما :-

- كانت تراقبني الملعونة ، سلبتنْي.

دون أن يعرف أوباما أين سيذهبان ، توقّف الرجل أمام أحد البيوت الذي يقع في حيّ قديم وهادئ، نظر إلى يمينه ثم إلى شماله قبل أن يقرع جرس الباب، صوت من الداخل:-

- من الطارق ؟
- أبو قُتيبة ! هيا افتح سريعاً يا أبو فياض .

دفع الرجل أوباما إلى الداخل برفق ، خاطب صاحبه :-

ها قد جئت إليك بأخ لنا أصابته مصيبة وبلاء .

حكّ أبو فيّاض لحيته وهمس :-

- منذ متى تعرفه ؟
- منذ مدّة قصيرة.
- كيف حدث ذلك ؟
- كان له كشكاً صغيراً نشتري منه ما يلزمنا، نجتمع عنده ساعات كثيرة، دمّروه أثناء الصدامات الأخيرة. يجب أن نقف بجانبه .

جلس أوباما محاصراً بين الرجلين، سأله أبو فياض عن كل شئ، قدّما له الأكل والقهوة والشاي، وحدّثهم عن رحلته من " الخرج " إلى بيروت وقدومه مع عمّه ناصر ليقوم بخدمته، أقاموا صلاة العصر والمغرب جميعاً، خرجوا مرّة أخرى إلى الكشك ليعاينوه. ثم عادوا إلى المنزل، حدّثوه عن الأمريكان وقدومهم إلى المنطقة وإنهم سبب الشّر والبلاء..

قال أبو قُتيبة ساخطاً :-

- لعن الله الأمريكان، هم من فعلوا ذلك.

أضاف أبو فيّاض محتّداً :-

- إنهم يقتلون إخواننا المسلمين في العراق وأفغانستان والسودان وفلسطين، يفجّرون المساكن والمدارس والأسواق وينسبون ذلك لإخواننا المجاهدين. يُمثّلون بالجثث ويلقون بها في الشوارع. حَسّبنا الله.. حَسّبنا الله ونعم الوكيل. يُزجّون بإخواننا في السجون ،

يذيقونهم أشدّ أنواع العذاب، يمتهنون كرامتهم .. يقّهرونهم ، لا يتردّدون عن ممارسة أي منكّر معهم . يغتصبون النساء. ولا يجوز السكوت على ذلك .

نهض أوباما يريد الخروج ، أوقفه أبو قُتيبة :-

- أين ستذهب ؟
- سأعود إلى عمي ناصر .. إنه ينتظرني.
- ستعود إلينا . أليس كذلك؟

هز رأسه موافقاً ، قال أبو قُتيبة :-

- سأنتظرك غداً عند مكان الكشك، الساعة الواحدة ظهراً ثم دسّ في يده ورقة ماليّة كبيرة:-
- ستساعدك على قضاء حوائجك، نحن إخوة لك نحبك كثيراً.

عاد أوباما إلى الشقة. وجد ناصراً قلقاً . يحمل سمّاعة الهاتف في يده، قذفها غاضباً :-

- أوباما .. أين أنت ؟ .. لقد سألت عنك جميع المستشفيات ونقاط التفتيش .
- كنت عند كشكي المدّمر .
- لم أجدك .. لقد ذهبت إلى هناك !

لن أُخبره .. لن أُخبره .

- ربما جئت عندما ذهبت إلى محطة الوقود القريبة .

أقترب ناصرُ منه، رَبت على كتفه :-

- لا تحزن .. سيعود كل شئ كسابق عهده .
- لا أظن . بحسّرة أجاب أوباما .
- سأخرج قليلاً لأُرفّه عن نفسي. لقد حبست أنفاسي بعدم عودتك.

قال أوباما في نفسه :-

- ستحبسها بعد هذا اليوم طويلاً .

❖❖❖

في تلك الليلة لم يَنم أوباما، لم يعدْ يفكّر في الكشك الصغير . كلام الرجلان منطقيّاً، أعاد في ذهنه ما دار بينهم من حوار.

أمريكا سبب البلاء والحرب .

لقد دخلوا العراق وانتشروا منه إلى الدول الأخرى، قتلوا الجنود والنساء والأطفال. استوطنوا الجزيرة العربية ، انتشروا في الكويت .. أعدّوا لهم قاعدة عسكرية في قطر. داسوا أرض الحرمين قبل أن تُخرِجهم السعوديّة من أرضها. نهبوا النفط. حاصروا سوريا ولبنان . فرضوا الحصار على ليبيا، أشعلوا جذور الفتنة الطائفية، فرّقوا بين الجماعات الإسلاميّة، هدّموا المساجد ودور العبادة والمدارس والمستشفيات، كان جنودهم يمارسون البغاء والرذيلة مع النساء والأطفال.

ظلّ أوباما يُعيد كلام الرجلين أكثر من مرّة حتى غلبه النوم .

❖❖❖

قبل الساعة الثانية عشر ظهراً، خرج أوباما إلى بقايا الكشك القديم لمقابلة أبي قُتيبة .. تقابلا في الساعة الواحدة . أخذه أبو قتيبة معه في السيّارة ورجعا إلى بيت أبي فيّاض، بعد أن قدَّما له القهوة قال أبو فيّاض :-

- أخي أوباما سأريك بعض الصور .

قدَّم له مجموعة كبيرة من الصور ، كل صورة مُغلفّة بغلاف بلاستيك سميك، صوراً فظيعة لأشْلاء جنود عراقيين ، منازل مهَّدمه، صور أطفال مقطّعة أيديهم ورؤوسهم. صور معاقين.. منهم من فقد يدّيه، ومنهم من فقد رجليه، ومنهم من فقد أحد أطرافه. صور لنساء اغتصّبن وأُخريات يهلّن التراب على رؤوسهن عاراً. مساجد هدِّمت، ومدارس وجسوراً حطّمت.

غلى الدمُّ في رأس أوباما ، ضَرب بيده على الطاولة .

- كيف يَسّكت المسلمون على ذلك ؟ كيف ؟ ألا يملكون إحساساً وكرامة ؟

تلاقت نظرات أبي قُتيبة وأبي فيّاض تَحمل معان لا تخفى على بعضهما..لقد سقط في الفخ .

- فكّر أوباما في العودة قبل أن يعود ناصر .

نهض أوباما واقفاً :-

- عذراً ... يجب أن أغادر .. سأعود إلى البيت.

هز أبو فيّاض رأسه دون أن ينهض :-

- أبا قُتيبة قمْ بإيصاله إلى مسّكنه .

في الطريق إلى المسكن ، التفت أوباما إلى أبي قُتيبة :-

- أخي ... أنا لست حُراً إنني مُقيّد.. أعمل صبيّاً عند عمي ناصر الذي يُكمل دراسته في بيروت. لو كنت أملك وقتي لما فارقتكما.

- لا بأس سنجد حلاً لهذه المعُضِّلة إن شاء اللّه.

تبادلا الأحاديث الكثيرة .

عندما اقترب أوباما من الشقّة .. طلب من أبي قُتيبة الوقوف .

- هنا .. هنا .

أوقف أبو قُتيبة السيارة :-

- أين تسّكن ؟

- قريباً من هنا . شكراً ، أريد إن أنْزل .

- لا تنس غداً، نفس الموعد والمكان.

أصبح أوباما يتردّد كثيراً على منزل أبي فياض أثناء غياب ناصر في الجامعة دون علمه، يستمع كثيراً لما يقولونه عن فظائع القوات الأجنبّية ويشاهد أشرطة الفيديو المسجّلة ويتابع التلفاز .

في إحدى الأيام، بعد مرور أسبوعين على تَردّده وجد على غير عاده، عدداً كبيراً من الأشخاص في بيت أبي فيّاض. استغرب الأمر ولكن أبا قُتيبة جذبه من يده واحتضنه واقفاً ، همس في أذنه:-

لا تجلس .. لا تجلس . نظر إلى الرجال أمامه:-

- أيها الإخوة ، أزفُّ لكم اليوم بشرى..

نظر إلى أوباما واستطرد :-

- لقد استطاع أخوكم في الله أوباما أن يكّسب ثقتنا جميعاً لما لمسنا فيه من حماس وغيره شديدّين وقررّنا بالتشاور والشورى أن نوافق على انضمامه إلينا ليصبح عضواً في المجموعة ... الله أكّبر. الله أكّبر. الله أكّبر.

كبّرَ الرجال خلفه ، أضاف أبو قُتيبة .

- وقد اخترنا له اسماً حركياً "صافي " وكنيّته.. أبو علي .

نهض الرجال إليه وعانقوه واحداً واحداً، مباركين له هذه الثقة، سائلين الله له القبول والثبات.

لاحظ ناصر شرود أوباما وانطوائه، حاول أن يواسيه بتدمير كشكه الصغير.

- أوباما لا تحْزن .. سأُعدّ لك كشكاً أخر أكْبر منه.

صَمَت أوباما ولم يجبْ، لم يعدْ الكشك يُشكِّل له هماً . هناك أشياء قادمة أكبر من ذلك.

❖❖❖

كان أوباما جالساً في بيت أبي قُتيبة في غرفة صغيرة، مع اثنين آخرين لا يعرفهما ،أحدهُما سودانيّ والآخر جزائريّ،حكى لهما أوباما قصَّته كاملة ،وكيف جاء إلى هذا المكان،التفت إليهما ، وسألهما :-

- هل تعرفان بعضْكما من قبل ؟
- لا .. لقد تعارفنا هنا ، في هذه الغرفة .
- لقد حكيت لكما قصّتي، هيّا الدور عليكما ؟

نظر كل منهما إلى الآخر قال عثمان (السودانيّ) أنا سأسرد قصّتي لكما :-

- لقد تَخرجّت من جامعة أم درمان قبل سبع سنوات قسم الدراسات التاريخيّة ، لم أجد عملاً رغم محاولاتي الكثيرة ، لم أكن وحدي، طابورُ ُ طويلُ ُ من الخريجين ينتظرون دورهم للحصول على وظيفة ويتزاحمون على شباك مراكز التوظيف. كنت أخرج صباح كل يوم، تلاحقني دعوة والدتي لي بالعثور على وظيفة تُسد احتياجاتي وأجمع المال لإتمام زواجي من ابنة عمي (حُسنه)، المحجوزة لي حسب أعرافنا. عملت في بيع الأطيّاب الشرقيّة رخيصة الثّمن. اشتغلتُ حمّالاً في سوق الخضار. اشتغلتُ دليلاً لسوّاح أجانب، بائعاً

للخرز والمسابيح والخواتم، غسّالاً للسيارات، مُنظّماً للمواقف العامة للسيارات، ومنادياً للركّاب المسافرين على سيارات الأجرة والباصات . وأعمالاً أخرى كثيرة.. كثيرة لا أذكرها، كُنت أخرج صباحاً ولكني لم أكن أعرف ماذا سأعمل في ذلك اليوم.

كنت عائداً في أحد الأيام، فرحاً بما كسبته من مال وفيّر على غير عادتي، ناديت والدتي. قَبلّت رأسها :-

- كم مرّة دعوتي لي اليوم .. لقد وفقّني الله بهذا المبلغ ، وضعته في يدها. أنتي من يستحقّه. قَبّلتُ رأسها مرّة أخرى، لاحظت اضّطرابها سألتها :-
- والدتي ماذا حدث ؟

أطْرقت برأسها ، يداها على صدرها ، احتضنتها من جديد :-

- والدتي.. أنتي غير طبيعية ، أخبريني ؟

جذبتني إلى حافّة المقعد المهترء :-

- اجلسْ .. اجلسْ يا عُثمان .
- حاضر .. حاضر والدتي !
- اسْمع يا ولدي.. كل شئ يحدث بإرادة الله ..

نهضتُ . أمسكّتها من كتفيّها :-

- هل حدث لوالدي شيء ؟
- لا .. لا .. إنه في الحقل .. لم يْحدث له شيئاً .

جلستُ مّرة أخرى . استمَّرت في الكلام .

- ابنة عمك حُسْنه ...

قاطعتها :-

- ماذا حدث لها ؟
- لقد خُطِبت اليوم .. لقد وافق والدها، قال لي إنه لن يتركها تنتظرك لأنك لا تستطيع تأهيل نفسك قريباً. وقطار العمر يمضي وفرص الزواج تضيق أمامها.

لم أنتظر لسماع بقيّة ما ستقوله لي . ولم يكن لي غرفة في المنزل أقْصدها، كنتُ أنام في الصالة، أترك فراشي خلفي تُلفَّه والدتي في الزاوية. أُعيد فرشه في الليل عندما أرغب في النوم . خرجتُ من البيت وصفقتُ الباب خلفي بقوة، صوت والدتي يتبعني:-

- حسبي الله ونعم الوكيل ... عد إلى المنزل .. لا تخرجْ .. سوف...

هِمتُ على وجهي ذلك اليوم في الشوارع .. صعقتني والدتي..حُسْنه ستتزوج غيري ؟ حُسنه لن تكون حليلتي ؟ سيأتي من يأخذها مني؟ لا.. لا لن أسمح لأحد أن ينتزعها مني.. سأقتله.

جلستُ على المقهى الصغير ، قابلتُ صديقي نور الدين، حكيتُ له قصتي ، وجدتّه يحكي لي قصته المأسوية ، كان التلفزيون في المقهى الصغير يعرض صوراً دامية للمجازر التي يتعرض لها العراقيون على أيدي القوات الأمريكيّة .. قتلى. جثث مشوهةِ. اغتيالات. عبوات ناسفة. سيّارات مفخّخة . جوع . فقر. مياه ملوثّة. فجأة قفزت إلى ذهني فكرة

الجهاد ونصرة أخواننا في العراق . أفصحتُ لنور الدين عمّا يجول في خاطري. ناقشنا الموضوع سويّاً. أعجبتنا الفكرة ... وجدت حماساً من صديقي نور الدين الذي كان يحتفظ بأرقام أشخاص في القاهرة يقومون بتهريب المجاهدين واستخراج جوازات مزوَّرة. اتخذْنا قرارنا بالهجرة إلى القاهرة ومنها إلى العراق . أقترضْت قيمة التذكرة من أحد أصدقاء والدي، تسلّلت إلى البيت فجر اليوم الثالث لغيابي، كانت والدتي تبكي على سجّادتها . شعرَت بحركتي. التفتت نحو الصوت، عندما رأتني نهضت واقفة، اتَّجهت نحوي، احتضنتني وهي تبكي. ضربتْني برفق على ظهري . قَبلّت وجهي . بلّلته بدموعها :-

- لماذا يا ولدي ؟ كيف تفعل ذلك بنا ؟

كذباً أجبْتها .

- لن أكررها .. لن أكررها .

لم تتركني أنام وحدي . نامت تلك الليلة بجانبي في الصالة. تسلّلت إلى غرفتها . سرقت جواز سفري. نِمتُ بجانبها مرّة أخرى دون أن تشعر بذلك . في الصباح، بعد أن تناولت معها الإفطار قَبّلتُ رأسها كثيراً ثم خَرجْت، كان صديقي نور الدين ينتظرني في المقهى الصغير. اتجهنا إلى المطار ، حجزنا على أول طائرة متّجهة إلى القاهرة.

لم تطِّل إقامتنا في القاهرة . يومان فقط تم إعداد كل شئ ليسْهل وصولنا إلى بيروت، كان هناك من قام باستقبالنا في بيروت، غادر نور الدين إلى أشخاص يعرفهم، وجاءوا بي إلى هذا البيت حيث التقيتكما.

ربت الرجل الأخر على ركْبة عُثمان :-

- حمّداً للّه على سلامتك، لقد أَبليت بلاء حسناً ، إن قصتّي مختلفة تماماً عن قصتّكما. أنا أخوكم بلْحاج عمّار من الجزائر، كنت أعمل فرّاشاً في مسجد قريتنا الصغير، أُنظّف المسْجد ودورات المياه وأُغلق الإنارة والأبواب بعد خروج المصّلين، ليس لي راتبُ ، يتصدّق عليّ بعض المصلين . أسْكن في غرفةٍ ملحقةٍ بالمسجد. كنتُ أشاهد مجموعة صغيرة من المصلين تتأخر في الخروج، وتتخذ من زاوية المسجد مكان لتجمّعها على شكل دائرة صغيرةً، كانوا يبدأون بتلاوة القران وحفظه ، ثم يقرأون كتاباً أخر ويتناقشون فيما بينهم بعد قراءته . لا يتكلم منهم أحدً إلا بعد الاستئذان من رجلٍ كبيرٍ، ضخم الجثة. لحيتّه بيضاء طويلة . أقتربت منهم . سمعْتهم يتكلّمون عن العراق.. عن الإرهاب .. عن القتلى . الظلم. الاغتصاب. السرقات. كلّ ما يحدِث للشعب العراقي. الجهاد. الاستشهاد. كان صوتهم مرتفعاً أثناء نقاشهم ولكنه ينخفض في لحظات أخرى . دفعني فضولي إلى ضرورة معرفة ما يتحدثون عنه .

كان باب المسجد مغلقاً عليهم. أقتربت منه، وضعت أذني عليه مسترقاً السمع .. وصلني صوتهم بوضوح، يتحدّثون عن ضرورة الجهاد والعمليات الانتحاريّة ويُكبِّرون بين لحظة وأخرى .. جذبني حماسهم وغيرتهم على إخوانهم في العراق. أحببت الاقتراب منهم لسماع ما يقولون، تمنيّت مشاركتهم، تفتّق ذهني عن حيلة أختلط بهم . أصبحت أعمل لهم أكواب الشاي وأُحضر لهم الماء . شعروا برغبتي في الاقتراب منهم وسماع ما يقولون ، أستوقفني أحدهم في يوم من الأيام وسألني إن كنتُ أرغب في مشاركتهم حفظ بعض أجزاء القرآن. رحبّت بشدّة ما دمْت سأختلط بهم.

توقّف عن الحديث، ألتفت إلى أوباما وزميله:-

لا أريد الإطالة، تعرَّضت لاختبارات عدة لرصد ردّة فعلي حول ما يدور في العراق، حَفظْت سوراً كثيرة من القرآن. سألني الرجل الكبير (أمير الجماعة) عن مدى رغبتي للعمل مؤَذنِاً لأحد المساجد في العراق، أبديْتُ له فرحتي وسعادتي بذلك وأخبرته بأنني لا أملك جواز سفر ، طلب مني صورة ضوئية وبطاقتي القوميّة . سلّمني جواز سفري بعد ثلاثة أيام وتذكرة سفر إلى بيروت ومبلغاً من المال ومجموعة من النصائح وأرقام هواتف أبي قُتيبة .. احتضونني مودِّعين.

- هذه قصتي.
- بارك اللّه فيك .

دخل أبو قُتيبة فرحاً :-

- أيها الإخوة لقد اقتربتم من تحقيق هدفكم النبيل... مناصرة إخوانكم في العراق وطرد القوات الأجنبيّة. ستأخذون جوازتكم بأسماء جديدة، لكل منكم أسم حركيّ تنادون بعضكم به .. أوباما .. اسمك أحمد سعيد علي واسمك الحركي (صافي)، عثمان أسمك حمد فالح صايل واسمك الحركي (صايْل) ، أنت يا عمار اسمك ساري محمد غالي واسمك الحركي عبّود .

أضاف أبو قُتيبة :-

- تأكدوا من وجود صوركم الحقيقيّة على جوازتكم. احفظوا أسماءكم الجديدة جيّداً . لا تهتموا لأمر الرحلة . سنتكفّل بكم حتى وصولكم إلى أرض العراق.

أخرجَ محفظته، مدّ إلى كلٍ منهم مبلغاً من المال:-

- هذه مبالغ قليلة تحتاجون إليها في الطريق. خمسة آلاف ليرة سورية. عشرون ديناراً عراقياً. خمسون دولار أمريكي لكل واحد منكم ولكم المزيد على دفعات كي لاتلفتوا الأنظار .

توقف قليلاً ثم أستطرد :-

احتفظوا بهدوئكم ، الارتباك هلاك. عليكم حلق لحاكم ولبس الجينز والقمصان المفتوحة ومارسوا التدخين. يجب ألا يتم

استفزازكم. لا تَقربوا المساجد ، إنها تحت مراقبة رجال المخابرات. وعرضّه للمداهمة في أي لحظة. لا تُخبروا أحداً. استعينوا بالكتمان لقضاء حوائجكم، لا تأخذكم عواطفكم إلى الاندفاع نحو الشباب السلفيّ . إنهم مراقبون ومثار شبهات.

توقّف قليلاً ثم أضاف :-

- سنغادر الأراضي اللبنانية إلى سوريا فجراً ، ومنها إلى العراق.. أرض الجهاد والشهادة . ردِّدوا معي :- اللّه أكْبر .. اللّه أكْبر .. اللّه أكْبر

ردد الرجال الثلاثة خلفه بحماس:-

- اللّه أكْبر . اللّه أكْبر . اللّه أكْبر

❖❖❖

لم ينم أوباما في تلك الليلة،افترسته مشاعر متضاربة بين الفرح والغضب، ستبدأ رحلته الحلم ، سيُحقِّق هدفه الذي ظل يطارده الأيام الأخيرة، رغبته في طرد القوات الأمريكية المحتَّلة لأرض العروبة وسينتصر لإخوانه الصابرين في العراق وأفغانستان وفلسطين ، تناوبت عليه كوابيسُ ُ مزعجة وأحلام كثيرة متقطعة ولم تكن ليلته كبقية الليالي، ولن تغيب عن ذهنه قبل فترة طويلة. في تلك الليلة، تذكر عمّه ناصراً ، حَزن كثيراً لفراقه وهروبه وما سبّبه له من متاعبٍ أثناء البحث عنه ، لقد تعوّد على خدمته ومصاحبته.

- **لا يَهم. سيبحث عني ثم يُبلِّغ عن غيابي، سيجد شخصاً آخر يخدمه. لم أتركه طمعاً في مكسب مادي أو العمل عند آخرين، لقد دفعني إلى ذلك غاية سامية وهدف نبيل. إخراج الأمريكان من أرض الإسلام والعروبة .**

صوت أبي قُتيبة يوقظهم :-

- هيا .. هيا يا رجال ، قوموا .. صلاة الفجر .. أمامنا طريق طويل.

نهض الرجال، تناولوا إفطاراً خفيفاً، كأساً من الحليب الساخن الممزوج بالشاي وخبّزاً وجبناً وعسلاً. أخذوا حقائبهم الخفيفة . ركبوا باصاً صغيراً قديماً قاده أبو قُتيبة، كان يحدِّثهم وهو يقود دون أن يلتفت إليهم:-

- أُذكِّركم .. التزموا الهدوء، تصرَّفوا ببساطة، إذا سألكم أحدُ عن جهتكم. ليختلقِ كل واحد منكم عذراً. أنت يا أحمد سعيد قل إنك قدمت لزيارة طبيب هناك، أنتما حمد وساري قولا إنكم قَدِمتما لشراء بعض الحبوب مثل القمح والشعير للمتاجرة.

كان أبي قُتيبة يحدِّثهم عن بطولات المجاهدين وكراماتهم بحماسة، مكبرٍّ بين لحظة وأخرى، وهم يُكبِّرون خلفه. مبشرهم بأن ذلك سيحدث لهم . توقفوا ثلاث مرات على الطريق من بيروت إلى مركز المصنع الحدودي اللبناني. كانوا يتزودون بالوقود ويتناولون الشاي

والوجبات الخفيفة. يدخنون النارجيلة لتظْهر رائحة الدخان في ملابسهم وأفواههم زيادة في التمويه كما نصحهم أبي قُتيبة ذلك.

لم يطل إنهاء إجراءات السفر في مركز المصنع اللبناني، كانوا يعرفون أبا قُتيبة. استقبله أحدهم، أخذ منه الجوازات ودفتر السيارة، غاب فترة قصيرة ثم عاد لُيقِّدم له الجوازات وورقة العبور. قدم أبو قُتيبة ورقة إنهاء الإجراءات إلى العسكري الواقف عند الحاجز المعدني. مزّقها. رفع الحاجز ليسمح له بالمرور. تكرّر الأمر عند المركز الحدودي السوري، لم يستغرق الأمر أيضاً عدة دقائق. كان أبو قُتيبة ساحراً، يعرف كيف يتعامل مع رجال الحدود ، كان يدس في جيوبهم النقود ويقدم لهم الهدايا. لقد سهّلوا أمر خروجهم. عرج أبو قُتيبة ورفاقه إلى أحد المطاعم المنتشرة داخل الأراضي السورية، قريباً من المركز. أوقف أبو قُتيبة السيارة وقفز فرحاً:-

- سنحتفل بنجاح الخطوة الأولى .

نزلوا من السيارة فرحين، أطالوا الجلوس في المطعم . أكلوا وجبات عربيّة شهيّة .توجيهات أبي قُتيبة مرة أخرى :-

- نحن تحت المراقبة . سنشرب الشاي وندخن النارجيلة . وسنلعب الورق أيضاً . جهتنا القادمة مدينة البوكمال، نريد أن نصلها في الظلام .. قُبيل الفجر.. إننا نستغل الليالي المظلمة لإنجاز مهامنا.

البوكمال مدينة سوريّة قريبة جداً من مدينة القائم العراقيّة. لهجتهم قريبة من اللهجة العراقيّة، يمتازون بالكرم ويتعاطفون مع أخوانهم العراقيين وتربطهم علاقات قُربى ونَسَب لبعض العائلات العراقيّة، يجتمعون معهم في حب المجاهدين ورجال المقاومة وكره الأمريكان، يختبئ فيها المجاهدين وهم في طريقهم إلى العراق. لا يمانع أهل المدينة بإيوائهم وتقديم المعونة لهم. وفي نفس الوقت فإن المجاهدين يقّدرون كرمهم وخدماتهم فيعطونهم بعض المال.

وصَلوا البوكمال قبيل الفجر كما خطط القائد أبي قُتيبة. كانت السيّارة القديمة تتعرّج في شوارع ضيّقة . تسير ببطء شديد . وقف أبو قُتيبة عند أحد البيوت القديمة . وضع أُذنه على الباب . أطال استراق السمع . التفت إليهم . نقر الباب بإصبعه نقراً خفيفاً :-

- أبا عُبيده.. أبا عُبيده. أنا أبو قُتيبة.

فتح الباب فجأة . دخل أبو قُتيبة يتبعه الرجال الثلاثة .

دخلوا إلى غرفة صغيرة مرّتبة، يوجد فيها مجموعة من فرش النوم الأرضّية والأغطيّة، وموقد غاز صغير وثلاجة متوسطة، يصطّف بالقرب منها غرف أُخرى متشابهه، ينبعث منها أصوات عالية لرجال في الداخل. لم يلتفت أبو عُبيدة إلى الرجال الثلاثة . عينيّه في عينّي أبي قُتيبة :-

- من هُم رجالك ؟

- إخوة لك في الإسلام . عابرو سبيل. لن تطول إقامتهم، ربما ثلاث أو أربع ليال.
- من هم . إنني أسالك من هم ؟
- أيخامرك الشك أبا عُبيدة ؟

قَضم الرجل شفته السفلى :-
- لا .. لا . لكن وجوههم مختلفة ، ليس كرجالك في كل مرة.
- أنت تعرفني .. نحن في قارب واحد أبا عُبيدة ، إنهم رجالي .

شعر أبو عُبيدة بالأمان ، استدار إلى الرجال الثلاثة :-
- حّياكم الله .. حّياكم الله يا إخوة

أنحنى ليصافحهم. نهضوا معانقين ، خرج من الغرفة . عاد يحمل قهوة وحليباً وخبْزاً ساخناً وتمْراً .

اختلى أبو قُتيبة بالرجل في الزاوية البعيدة ، تبادلا حديثاً سريعاً ، أخرج أبو قُتيبة محفظته وسلّمه ورقات كثيرةً من فئة المئة دولاراً ، تجاوزت حركة إصبعه العشرين مرّة . أعاد الرجل عد النقود مرة أخرى. ابتسم، رتب على كتف أبي قُتيبة ، قال مداعباً :-
- الآن من حقك علينا الاهتمام بضيوفنا حتى رحيلهم .
- إنهم توّاقون إلى الجهاد يا أبا عبيدة .
- لن تطول إقامتهم . لدينا أحد عشر رجلاً ، جميعهم جاهزون. وصلوا قبل يوميْن.

- من قائدهم ؟
- أبو سلمان النجدي .

أخذ أبو قُتيبة يلعب بلحيته .

- أبو سلمان يتحرك كثيراً ويربح كثيراً.
- وأنت كذلك يا أبا قُتيبة .

اقترب من الرجل وهمس في أذنه .

- ثلاثة.. ثلاثة فقط. هذا كل ما استطعت تجنيده وأنت أيضاً - هداك الله - تأخذ كثيراً.

رد أبو عُبيدة ضاحكاً :-

- ستأخذ أكثر عندما تسلِّمهم إلى الجماعات الجهادية في العراق .

ربَتَ كل من الرجلين على كتف الأخر ، وضحكا سوّياً .

في مساء ذلك اليوم . اجتمع أبو عُبيدة وأبو سلمان وأبو قُتيبة في غرفة صغيرة ، بدأ أبو عُبيدة الحديث:-

- سيدخل رجالكم غداً مدينة القائم العراقية. سيتّجهون إلى مزرعة أبي خليل .
- كيف عرفت ؟
- لقد أبلغنا أبو خليل بأن رجاله غداً بعد المساء، سيقومون بمهاجمة ومشاغبة القوات الأمريكيّة هناك على الطريق الرئيس لإلهائهم وصرف أنظارهم عنا، بينما نحن ومجموعات أخرى سنسلك الطريق الصحراوي المؤدي إلى مدينة القائم من الجهة الجنوبية .

سأل أبو قُتيبة :-

- لماذا مزرعة أبي خليل وليس دار صُهيب كالعادة ؟
- لقد داهمها رجال الأمن قبل أسبوع .

سأل أبو سلمان النجدي :-

- هل الطريق إلى المزرعة آمن؟
- نعم بكل تأكيد . سينتظرنا على الحدود دليلٌ موثوق به ومزكّى من قبل المقاومة في الداخل. سيعبر بنا الحدود على خيول مجهزةً، لن تُحدث صوتاً، والمسافة قليلة أيضاً إلى المزرعة. إضافة إلى تفاهمه مع رجال آخرين سيدفع لهم كما دفعنا له. الحياة تسير بهذه الطريقة .

قال أبو سلمان:-

- على بركة الله .

رد أبو قُتيبة :-

- على بركة الله

تصافح الرجال الثلاثة.

❖❖❖

في مساء اليوم التالي، وقف باصٌ متوسط الحجم رماديُّ اللون أمام بيت أبي عُبيده، لم يَطل انتظاره فقد اندفع الأربعة عشر رجلاً داخله

بسرعة كلمح البصر، لم يأخذوا معهم حقائب أو أمتعة. كانوا خِفافاً. أدار محرِّك السيارة بسرعة، وأنطلق باتجاه مدينة القائم العراقية .

كان الظلام دامساً. توقّف في منطقة صحراوية خشنة . أطفأ أضواء السيارة . ترك المحرِّك مُداراً . كان يرسل إشارات ضوئية إلى جهة غير معلومة بين فترة وأخرى. الصمت يلف المكان، الباص المغلق بأحكام مازال واقفاً. فجأة مجموعة من الخيول تحيط بالباص من كل صوب. طلبَ السائق من الرجال النزول من الباص بسرعة ، تسلم كل رجل خيّلاً. ساعدهم الدليل على ركوبها . طلب منهم أن يتبعوه على خيولهم. تحرّك الباص في الجهة المعاكسة ، قافلاً إلى مدينة البوكمال بينما انطلقت الخيول إلى مدينة القائم . سار المرشد (الدليل) محاذياً لمجموعة من أشجار النخيل، اقترب من بوابة خشبية عريضة، دفعها برجله ثم دخل المزرعة، يتبعه بقية الرجالِ على خيولهم.

❖❖❖

رحب أبو خليل بالرجال الأربعة عشر ودليلهم. قدّم لهم الأكل والشاي والقهوة . سامرهم فترة طويلة . سألهم عن أحوالهم . جهّز لهم أماكنَ النوم . غادر على أن يراهم فجر اليوم التالي.

كانت غرفة النوم أشبه بمهجع عسكري، غرفةٌ مستطيلةٌ يصطَّف على جانبيها عدد كبير من الأسرة الحديدية وفرش مستعملة غير مُرتّبة وموقد كبير وثلاجة عريضة مُلئَت بعلب الماء وأكياس الخبز وتلفزيون

له شاشة كبيرة وجهاز عرض، يعرض باستمرار صوراً لبطولات المقاومة، يعيدها مرة تلو الأخرى، يبدأ عرضها كل يوم بعد صلاة الفجر، ويتم إغلاقه التاسعة مساءً، الوقت المحدّد للنوم.

❖❖❖

أيقظ أبو خليل الرجال. أشْعل الموقد وسكب الماء في إبريق أسوَّد كبير وضع كمية كبيرة من الشاي وكمية أكبر من السكر.. تحلّق الرجال حول طاولة مستديرة ترتفع عن الأرض قليلاً. صُفَّت فوقها مجموعة كبيرة من الأقداح مختلفة الشكل واللون والحجم.

سأل أبو خليل :-

- كيف حال الرجال اليوم ؟

تقاطعت أصواتهم :-

- بخير.. الحمد لله . لا بأس . زين.
- سَتجْلسون هنا فترة غير قصيرة. قرابة أُسبوعين. سوف يقوم العقيد ياسين بتدريبكم. أعلم أنكم قد نِلتمُ قسطاً من التدريب في السابق، ولكنكم هنا ستتعلمون أشياء جديدة تطابق الواقع .توقف قليلاً كأنمّا نسى شيئاً . تناول جهاز التحكّم . وفتح التلفاز ليبدأ العرض المكرّر ، استمر:-

- شاهدوا التلفاز، إنه يعرض صوراً لبطولات إخوانكم المجاهدين. انظروا ... إنهم يُفجِّرون مركزاً لِتلقّي طلبات العمل. شاهدوا الجثث المتطايرة والمصابين. لقد قتلهم إخوانكم لأنهم يطلبون العمل لمساعدة القوات الأمريكية. يجب أن نثير الرعب في قلوب المواطنين المتعاونين لنمنعهم من الالتحاق لخدمة المحتلين. تابع الرجال مشاهدة التلّفاز كأن على رؤوسهم الطَيرّ .

صوته ينبِّههم :-

- أنظروا ... وهذه صورة أخرى لإخوانكم يهاجمون دوريات القوات الأجنبية على دّراجة ناريّة ويلقون عليهم القنابل الحارقة .

انظروا ... انظروا... أتروّن الكلْب - أجلّكم اللّه - تابعوه... تابعوه، لقد أقترب من باب السوق المركزي مخترقاً الصفوف، انظروا... انظروا... لقد تطاير الكلْب في الهواء.

ألتفت إليهم أبو خليل منشياً :-

لقد فجّره أحد إخوانكم عن بعد، وقد تطاير مع بعض المتواجدين. وهذه محطة قطار تم تفجيرها عن بعد أيضاً. انظروا إلى المصابين. انظروا إليهم يستغيثون. انظروا إلى سيّارة الإسعاف واقفة لا تستطيع التقدم، لقد عطلّها إخوانكم أيضاً.

قطع متابعتهم للتلفاز دخول رجل ضخم الجثة، عريض المنكبين، دفع الباب بقوة، نهض أبو خليل، احتضنه بشدّة:-

- يا رجال هذا مدربكم العقيد ياسين، سيعِّد لكم برنامجاً تدريبيّاً قصيراً، يجب عليكم اجتيازه قبل توزيعكم وإلحاقكم بمراكز المقاومة. سيتحدّث إليكم العقيد ياسين . تفضّل سيادة العقيد، ثم أفسح له الطريق .

تقدّم العقيد ياسين ، وقف أمامهم . صمت قليلاً قبل أن يخاطبهم :-

- أيها الرجال الغيورون. أُحيي فيكم شجاعتكم ونخوتكم. أنا ياسين مدرّبكم العسكري. قبل ذلك أنا أخ لكم .. أخ صغير لكبيركم وكبيراً لصغيركم، نحن جميعاً نعمل لهدف واحد تعلمونه جميعاً وهو دافعكم لنصرة إخوانكم ومساعدتهم ، نظر إلى ساعته :-

- بعد ساعة من الآن، سنجتمع في الركن الأيّسر من المزرعة. هناك (أشار بيده إلى الجهة المقصودة) .

نظر الرجال إلى نفس الجهة . استطرد.

- البرنامج مكون من قسمينّ .. قسمُ ُ نفسيٌ نظريُ ُ والأخر عمليّ. بعد ساعة سوف نجتمع هناك . تناولوا إفطاركم ثم الحقوا بي. الالتزام بمواعيد التدريب والاستراحة والنوم ضروريّة جداً، ويعاقب عليها من يخالفها. هل هناك أسئلة ؟

صمت الرجال . التفت إليه أبو خليل :-

- كفيتُ ووفيّتُ سيادة العقيد ياسين. نلتقي بك في ساحة التدريب . هيا يا رجال لنعدّ طعام الإفطار جميعاً.

❖❖❖

في ساحة التدريب وقف الرجال ووقف أمامهم العقيد ياسين .

- إن الهرولة لمدة عشرين دقيقة كما فعلنا الآن أمرٌ جيدٌ قبل التدريب النفسي. أنا اسمي ياسين .. أريد أن أسمع أسمائكم. ابدأ من عندك... أنت من المنتصف .

وبدأ الرجال بذكر أسمائهم .

- حيّاكم الله مرة أخرى . سنبدأ ببعض القواعد المهمَّة. يجب عليكم الالتزام بها . وبصوت هادئ بطئ :-

أولاً :- من المفروض ألا يعرف أحدكم شيئاً عن الآخر، عدا اسمه. ولا يسأل عن غير ذلك . وسيكون لكل واحد منكم اسم حركيّ تنادون بعضكم بعضاً به.

ثانياً :- ستبدأون بأعمال مقاومة بعد فترة قصيرة. ستسمعون عن القتل وأساليبه، وستشاهدون كثيراً من الصور لجثث القتلى والجرحى والمشوّهين ، لا تأبهوا لذلك، ولا تَهِنوا أو تأخذكم شفقة أو رحمة، إنها أعمال بطولية لا بد أن يقوم بها إخوانكم أبطال المقاومة .

ثالثاً:-   من الضروريّ ألا تَعرِفوا أهدافكم قبل الخروج إليها أو قُبيل وصولها، أو السؤال عنها، هذه مهمة قائد المجموعة.

رابعاً:-   من الضروريّ ألا تَعرِفوا الأشخاص المستهدفين، كل ما يجب عليكم أن تعرِفوه أنهم يستحقون جزاءهم.

خامساً:-   لا تسألوا عن أي شئ ، إن يُبدَ لكم يسؤّكم .. نفِّذوا أوامر قادتكم ومسؤولي شِعَبكم.

مَسحَ وجوههم بنظراته القاسيَة :-

- الآن نكتفي بهذه القواعد. نكْمِلها غداً. راحة قصيرة، لنبدأْ التدريب الميدانيّ على كيفية استعمال الأسلحة والهجوم المباغت وصدّ الهجوم وخطف الرهائن.. وأشياء أُخر.

مرتْ عشرة أيام قاسيّة قضاها الرجال بين التدريب ومشاهدة التلفاز الذي يعرض صوراً عن الأعمال البطوليّة للمقاومة. لم يشاهدوا سوى أبي خليل وياسين، يقومون فجراً لتأدية الصلاة وإعداد وجبة الفطور، يَعقِب ذلك الذهاب إلى ساحة التدريب.

في اليوم الحادي عشر، عاد الرجال إلى مهجعهم مساءً بعد التدريب، وجدوا أبا خليل ينتظرهم فرحاً، وأمامه صحن كبير به كمية كبيرة من الأرز يعتليها خروف ضخم ، أُعد بطريقة شهيّة .

- أيها الرجال الأبطال، لقد اجْتزتم التدريبات العسكريّة بنجاح باهر واكتسبتم مهارات عالية، لقد استحقيتم هذه المكافأة. وليعتبر كل منكم نفسه من الآن مستعداً لأداء أي مهمة تسند إليه . غداً مساءً سوف نُقسِّكم إلى مجموعات، وستسند لكم مهمات مختلفة، والآن لنهجم على عدِّونا الخروف (ضاحكاً).

في الساعة السادسة مساءً من اليوم التالي . بعد أن تناولوا وجبة العشاء وشربوا الشاي. دخل عليهم أبو خليل، ألقى التحيّة، سألهم عن أحوالهم ، خاطبهم:-

- استعدّوا لساعة الصفر. سنُقِّسكم إلى مجموعات مختلفة، ربما لن تروا بعضكم مرّة أخرى، ودِّعوا بعضكم وأكثروا من الدعاء، ليستمع كل منكم إلى اسمه ورقم المجموعة التي سينضّم إليها:-
- أحمد سعيد . نهار حويل . عيسى أنتم المجموعة الثالثة. سوف تهاجمون الليلة سوق الخضار والفواكه في طرف المدينة . سيقود عيسى السيّارة ليوقفها في وسط السوق، المنطقة المكتظة بالباعة والمشترين. ستكون محمّلة بالفواكه. لا تُنزلوا حمولتها. إنها مفخّخة بمئتين وسبعين كيلو جرام من المتفجرات تحت هذه الفواكه، تغادرون المكان، أحمد سعيد سوف يقوم بتفجيرها عن بعد، ثم تعودون فرادى إلى أمكانكم:-
- مفهوم ؟
- مفهوم.

- عودوا الآن إلى أَسرَتكم. ستكون السيّارة جاهزة الساعة السابعة مساء، المسافة قريبة من هنا إلى سوق الخضار.

صوته يصلهم وهم يبتعدون :-

- فليج صايل ، حمد فليج صايل . عبّود أنتم المجموعة الأولى سوف تقومون ...

ابْتَعدوا عنه، لم يعدْ يصلهم صوته، تم توزيع الأفراد إلى مجموعات .

قاد عيسى السيّارة ببطء متجاوزاً خانات البائعين، مخترقاً جموعاً كثيرة من المشترين والجنود الأمريكان وبعض أفراد القوات الأجنبيّة. أصوات البائعين العالية المتقاطعة، تصل إلى أُذن أوباما بوضوح، يشعر بالألم يعصِر قلْبه، يسأل نفسه بحرقّة :-

لماذا يُقتل هؤلاء الأبرياء ؟ إنهم ليسوا أمريكاناً أو عناصر قوات أجنبية، إنهم إخواننا مدنّيون عُزلّ. أين الجهاد الذي نبحث عنه ؟ هل جئنا لنزهق أرواحاً بريئة ؟

صوت العقيد ياسين يخترق ذاكرته.

لا تأبهوا لشئ ولا تضعفوا أمام عواطفكم ، كونوا قساة غلاظ ، لا مجال للتراجع .

ابتعد الرجال الثلاثة عن الشاحنة منتشرين. كان أوباما متردداً. فات موعد التفجير. بحث عيسى عن أوباما. وجده يغطّي وجهه بيديّه. هزهّ بعنف :-

- أحمد .. أحمد ... اقضم الفراولة .

كانت الفراولة كلمة السر بينهم . انتبه أوباما إلى ذلك، ضغط بدون شعور على الصاعق . انفجرت الشاحنة وتطايْرت أشلاء كثيرة . اختلطت الفواكه والخضار بالأشلاء والجثث . نهر من الدم . صياح المصابين والمفجوعين. فرّ المواطنون الخائفون العزّل في كل اتجاه. تسلّلت المجموعة دون أن يشعر بها أحد. دخلوا المزرعة ، ثم اتجهوا إلى غرفتهم . الألم والصدمة يعصران قلب أوباما .

جاء أبو خليل، مكبّراً مهلّلاً، عانقهم واحداً واحداً، فرحاً بنجاح مهمتهم ، زفّ إليهم البشري :-

- أبشروا بالأجر والنصر .

دسّ في جيب كل واحد منهم مائة دولار. شعر أوباما بالمرارة والألم . أحتقر نفسه لقيامه بهذا العمل الجبان المجرّد من الإنسانيّة .

ليسوا أعداء، إنهم مواطنين مجرّدين من السلاح يسعّون لكسب قوتهم، يَحْلمون بالعودة إلى عائلاتهم. أين الجنود الأمريكان الذين يطلبون منا إخراجهم وقتْلهم ؟

كلمات أبي خليل تهدُر في أُذنه.

من يدخل الجماعة لا يخرج منها إلا متحيّزاً لقتال آخر أو مصاباً أو مختبئاً حتى لا ينكشف أمره ، من يخالف ذلك فجزاؤه الإعدام.

شعر بالخوف والقهر . انكفأ على نفسه .

❖❖❖

لم يعْد أحد من الرجال الآخرين. سأل حويل أبا خليل :-

- أين باقي المجموعة ؟
- هذه مجموعتك .. أنتم هنا .
- إنني اسأل عن بقيّة الرجال.
- آه .. لقد التحقوا بمراكز أخرى .
- ونحن ؟
- ستظلّون هنا .. لديكم مهمة أُخرى مساء الغد. أبشركم بأن كل الرجال اللذين كانوا معكم أنجّزوا مهامهم بنجاح، قُبض على شخصين فقط . لم يستطيعا الوصول إلى هدفهم.

المجموعة الأولى: حطّمت محطة نقل الركاب.

المجموعة الثانية : خطفت ثلاث نساء متعاونات مع القوات الأجنبية. اغتصبوهّن ثم قتلوهّن ، ورموا بجثثهن في الشارع .

المجموعة الثالثة: أنتم.. أهنئكم بإنجاز مهمتكم .

المجموعة الرابعة: تم القبض على أفرادها.. نسأل الله أن يكون في عونهم ويفكّ أسْرهم.
المجموعة الخامسة: حطّمت أحد الجسور بنجاح، وهاجمت شاحنات لنقل المواد الغذائية،أفْرغت حمولتها. قتلوا السائقين. فجّروا الشاحنات الخمس . الله أكْبر .. الله أكْبر .. الله أكْبر.

كبّروا وراءه، نظر إليهم مرة أخرى:-

- لم يعد هناك حاجة للمجموعات، أنتم مجموعة واحدة. أنا قائدكم، ولكنّني واحد منكم. ستأخذون مني الأوامر والتوجيهات. جهّزوا السيارة بالمتفجرات ولا تنسوا جالونات المادة السامّة . سندّمر غداً خطوط النفط، وسنُسمّم خزّانات المياه . اسْتعدوا لهذه المهمة.

قبيل الغروب، خرجت المجموعة من المزرعة في سيارة نقل صغيرة، يقودها أبو خليل. اجتازت منطقة المزارع باتجاه المدينة عبْر طريق بريّ وعر، أشار أبو خليل إلى خط أنابيب ضخم :-

- سنفجّر هذا الخط الليلة عندما يحلّ الظلام ثم سنذهب لمحطة المياه لتسميمها، القوات الأجنبية تأخذ حاجاتها من المياه من هذه المحطة، وتتزوّد بالوقود من هذه الأنابيب . سنمنع وصولهم إليهما.

استدار أبو خليل راجعاً إلى المزرعة. لحقت به دوريّة تفتيش تابعة للقوات الأمريكيّة دون أن يشعر بها. دخل المزرعة . دخلت خلْفه، سلَّطت

كشّافات إضاءة قويّة. وجّهت مدافعها الرّشاشة نحو السيّارة، وبصوتٍ عالٍ من خلال مكبّر الصوت اليدوي:

- أطفئوا محرك السيارة واخرجوا منها. أيديكم فوق رؤوسكم . ممنوع الاستدارة أو الحركة. انبطحوا على الأرض . أي حركة مشبوهة ستعرِّضكم لإطلاق النار .

قال عيسى مخاطباً أبا خليل :-

- لنفُجّر الباص .
- سنموت .
- وهم أيضاً سيموتون معنا .
- لا .. لا .

التفت الرجال الثلاثة إلى بعضهم، نظروا إلى أبي خليل. بَصق عيسى على الأرض . شعر بالقهْر . عيْنًا أوباما وحويل تعكسان نفس الشعور. نزل أبو خليل مشبِّكاً يديّه فوق رأسه يتبعه الرجال الثلاثة.

انبطحوا على الأرض . وضع أحد أفراد الدوريّة أيديهم خلف ظهورهم. ثم قيّدهم، زجَّ بهم في سيّارة سوداء مُقْفلة الجوانب. فتَّشوا المكان، صادروا ما وجدوه من أسلحة وذخائر وأجهزة كمبيّوتر وهواتف نقالة ثم غادروا.

جرّوا أوباما من ذراعه بقوة، دفعوا به إلى غرفة المحقق في مركز الإستخبارات التابع للقوات الأمريكيّة في بغداد . أزالوا العُصابة عن

عينيّه، فتحهما أوباما بصعوبة. جلس على كرسيّ حديديّ ثقيل لا يتحرك بسهولة. المحقق الأمريكيّ في مواجهته ، يفصلهما عن بعض طاولة حديديّة مستطيلة ، كان يتكلّم العربيّة بطلاقة :-

- ما اسمك ؟
- أحمد سعيد علي.
- من كان معك ؟
- لا أعلم .
- كنتم تحومون حول خطوط أنابيب النفط، ماذا تريدون ؟ ماذا كنتم تفعلون ؟
- غير صحيح .
- كانت سيارتكم محمّلة بالمواد المتفجِّرة
- غير صحيح.
- ومواد سامّة أيضاً .
- غير صحيح .
- أحمد سعيد !
- نعم !
- نعلم أن لديك الكثير لتقوله ، وتعرف عدداً كبيراً من المجموعات التي تُطلق على نفسها المقاومة. كُنْ متعاوناً معنا ، نتعاون معك.
- ما اسم قائدكم ؟
- لا أعْلم .

- ماذا كنت تفعل في المزرعة ؟
- ضيْف .. عابر سبيْل.
- كم مرة قمت بأعمال مقاومة ؟
- لم أقم بذلك .
- من همْ الرجال الآخرون غير مجموعتك التي قبضنا عليها ؟
- لا أعلم شيئاً .

أجاب المحقق ساخراً

- ستعْلم .. ستنطق أيها الأحمق .
- خذوه ... خذوه .. عودوا به إلى السجن .

❖❖❖

في اليوم التالي، عرفْت إنني في سجن أبي غريْب. لقد سمعّت عنه كثيراً، حدّثوني عن جرائم التعذيب والفظائع التي يمارسها السجّانون. لم أعرْها اهتماماً لثقتي بأنني لن أقع في أيدي القوات الأجنبيّة يوماً ، لم أُشاهد أحداً ولم أسمع أحداً أيضاً . كنت وحيداً في زنزانةٍ صغيرةٍ مظلمةٍ. يُقدّم لي الأكل من تحت الباب، أقضي حاجتي في نفس الغرفة.

في صباح اليوم الثالث، سمعت صوت أقدام تقترب من الباب، لم تمض دقائق حتى سمعت صوت وفتح باب زنزانتي، ضوء الشّمس في الخارج يندفع إلى الغرفة المظّلمة :-

- أحمد سعيد علي ... انهضْ.

نهضْت، يدايْ كانتا مربوطتين بسلسلة حديدية بأحكام . ينزِّل منها سلسلة حديديّة أُخرى إلى قدميِّ، اللتين لُفتا بسلسلة حديديّة أُخرى مزّودة بقفلٍ صغيرٍ قويّ، فتحوا الأقفال الحديديّة والسلاسل قبل الدخول على المحقق. طلبوا مني خلع لباس السجن والبقاء بملابسي الداخليّة. أدخلوني على محقق أخر، يفصل بيني وبينه حاجزُ زجاجيٌّ سميك ذو فتحات دائرية صغيرة تسمح لكل منا أن يسمع الأخر، فتح ملفاً أزرق اللون، رفع رأسه نحوي سألني:-

- هل تريد أن تقول شيئاً ؟
- لا .. ليس لديّ ما أقوله .
- حسناً خذوه مع زملائه .

سحبني أحد الجنود بقوّة إلى غرفة أخرى :-

- انزع ملابسك الداخليّة .
- لا .. لا .. لا

وضعت يديّ عليها ، قاموا بنزعها قسراً. قيدوني مرة أخرى. جروني عاريّاً. فتحوا الباب ثم قذفوا بي على مجموعة من المساجين كانوا عراة مقيدين بسلاسل غليظة، لا نستطيع أن نتحّرك ولا نستطيع أن نَسْتر أنفسنا.

بعد عدّة ساعات عادوا بي مرة أخرى . كنت عاريّاً. مكّبلاً بالسلاسل.

- هل تريد أن تقول شيئاً ؟

- لا .

- خذوه إلى غرفة الراحة .

مرّة أُخرى جروْني عاريّاً، أدخلوني غرفة صغيرة، شديدة البرودة ذات أرضيّة جليدية. كنت أقفز من شدّة البرد. الهواء البارد يؤذي عينّي كنت أغمضْهما وافتحهما بسرعة. جاء أحد الأطباء بعد فترة ليفحص نبضات قلبي. هزّ رأسه بالإيجاب. تركوني في الغرفة ثم خرجوا، لم أستطع أن أستلْقي أو أقف على رجليّ. أو أستند على الجدار. بكيّت من الألم . بعد فترة قاربت الساعتين، فُتح الباب مرّة أخرى. أعادوني إلى زنزانتي. ارتميت بالقرب من الجدار منهاراً. أُغمى عليّ. صحوّت منتصف الليل. آلام شديدة تمزّق جسدي ونفسي.

صباح اليوم التاليّ فُتح الباب . لم أشاهد أحداً، فجأة قفز على كلبُ ُ أسود اللون ضخم الجثة، في عُنقه سلسلة غليظة، يُمسك بها عسكريّ ضخم. عضّني في أسفل ساقي، حاول أن يعضّني مرّة أخرى. جذبه العسكريّ بقوّة ثم خرج .

تناولت إفطاري كوباً من الشاي وقطعة خبز يابسة، وحبّة زيتون واحدة، وصلني صوت السّجان وهو في طريقه إلي :-

- أحمد سعيد .. أنت مدعو لحضور حفلة جديدة على شرفك .

- أعلم .

لم أُشاهد المحقق ولكن السّجان سألني :-

- هل لديّك شيئاً جديداً تريد أن تقوله للمحقق ؟
- ...
- إذن لنذهب إلى الحفْلة .

جرّني مكّبلاً. طلب مني نزع ملابسي. لم أنزعها، قام بنزعها، يدايّ مقيّدتان خلف ظهري. قيّد ساقي من أسفل بسلسلة حديديّة. طرحني على ظهري عارياً ثم علّقني من رجليّ في سارية حديدية، رأسي إلى أسفل. ضربني بسوطٍ من النايلون السميك على مؤخرتي وضلوعي:-

- إذا أردت الكلام أطْلب مني أن أتوقف لنذهب إلى المحقق سويّاً.
- ....

كنتُ أصرخ وأصرخ وأصرخ، لم يتوقّف عن الضرب ، كان يطفئ سيجارته بين فترة وأخرى في بطني وفي فخذيّ وفي مؤخرتي. ليتني كنت أعرفهم لما تحملت هذا الألم، لا أعرف أحداً منهم ولا أعرف شيئاً. أُغمىَّ عليّ . فتحتُ عينيّ ،كنتُ في زنزانتي مرة أخرى.

❖❖❖

لم يعد يذهبون بي إلى المحقق . اشتقْت إلى رؤيته . كنت أرتاح قليلاً في غرفته، ثبّتوني من وسطي بحزام مزروع في الجدار. في إحدى المرّات جعلوني أحمل كتلة أسمنتّية كبيرة وعريضة، إذا سقطّت أو

حاولت إبعادها أو أسقطّتها ستحطّم قدميّ. جاهدت كثيراً. بكْيت. كانت ثقيلة . وأخيراً سقطت على قدمي . شعرت بالدّم الساخن يتدفق إلى الخارج من أصابعي ويصعد الألم في رأسي .
ليتني أعرف شيئاً. ليتني أعرف لتكلّمتُ ولما صمتُّ حتى الآن .

مارسوا معي كل أساليب التعذيب وما تفتّق ذهنهم عليه وأشياء أخرى لا يفكِّر بها الشيطان نفسه. غمروني في ماءٍ شديد البرودة ساعات طويلة . دفنوا وجهي في الوحل . بصقوا علي . ضربوني بالسياط عدة مرات حتى احمَّر جسدي ووضعوا عليه ملحاً ناعماً. ربطوا عضوي الذكريّ بشدةّ. لم يسمحوا لي بالذهاب إلى دورة المياه. جاء المحقق إلى زنزانتي . بدأ حواره هادئاً :-

- تحمّلت كثيراً من الألم بسبب آخرين لا يستحقون ذلك. أنت تعرفهم.
- لا أعرف شيئاً .
- من قام بتجنيدك .
- لست مجنّداً .
- أين يخبئون السلاح والذخائر ؟
- لا أعلم عن أي سلاح أو ذخائر.
- لن يطلْ صمتك . الليلة الحفلة الكبرى . لن تجد وقتاً للصمْت . ستعذّب حتى الموت ثم تُرمى جثّتك للكلاب .

قبيل الفجر. فُتح باب الزنزانة .

- أحمد سعيد ... أنت مدعوّ للحفلة الكبرى كما وعدك المحقق.

قادني عسكريّان ضخما الجثّة خارج الغرفة، شعرت بالخوف. لم تقو قدماي علي حملي. كعادتهم خلعوا ملابسي . ربطوا يديَّ فوق راسي . علقّوها إلى أعلى . كان المحقق واقفاً :-

- أحمد سعيد. الآن ستتكلّم أو ستصمت للأبد، ثم استمر بهدوء:-
- هذا جهاز صعق كهربائيّ . سيتم تثبيت أحد أسلاكه بحلمة ثدّيك والسلك الأخر سيتم تثبيته في عضوك الذكريّ ثم نوصل إليه التيار الكهربائيّ وسترى. قبل ذلك سننّزع ظفر أصْبع قدمك اليسرى الكبير. وظفر أصْبع يدك اليمنى الصغير،ألتفتت المحقق إلى العسكري:-

- أحضرْ رجال أمن كثيرين لنزع أظافره. أوصل التيار الكهربائيّ. حضر الرجال، كانوا يحملون جهاز الصاعق الكهربائيّ. ويحملون آلة تشبه الآلة المستخدمة لنزع المسامير. أحاطوا بي .ثبّت العسكريّ السلك الكهربائي على حلمتي وثبّت الطرف الأخر على عضويّ الذكريّ. أمر المحقق بإشارة من يده بإيصال التيار الكهربائي، ضغط العسكريّ على الزرّ الكهربائيّ فأنفتح الجحيم.

صاح أوباما : -

- لا .. لا .. لا

نهض أوباما من فوق الكرسيّ في مكتبه بالبيت الأبيض واقفاً. سمع رجال الحراسة صراخه، اندفعوا جميعاً نحو الباب، فتحوه بسرعة، تَتْبعهم زوجته ميشيل. وجدوه واقفاً. اندّفع إلى زوجته وضمها، احتضنته ميشيل بقوّة، مسحت العرق عن وجهه. وكانت ابنتاهما ساشا وماليا خلفها، ضمّهما.

- ميشيل ... لقد كان كابوساً مريعاً .

هز رأسه ليطّرد بقايا الحلم المخيف ، ضَمّهم جميعاً مرّة أُخرى.

خرج مع زوجته وابنتّيه ، يُراقبهم رجال الأمن.

فخامة الرئيس باراك حسين أوباما.

رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

بداية أُهَنـئكم على فوزكم التاريخيّ برئاسة الولايات المتحدة الأمريكيّة.

فخامة الرئيس .. استميحكم عذّراً بما ورد في هذه الرواية (صنع خيال) التي تُظهرَّكم بأماكن وتصرفّات غير حقيقيّة مخالفة للواقع الجميل الذي صنعته أنت وعشته وعاشه الملايين معك .

فخامة الرئيس .. إن دافعي لكتابة هذه الرواية هو إنجازكم التاريخي الذي ترجمه شعبّكم العظيم بوضع ثقته بكم لأنكم تستحقونها بما تملكون من ثقة وإيمان عَميقين بأنفسكم والأمل والتغيير الذين رسمتموهما ، ومسيرتكّم الثريّة في مجال العمل الاجتماعيّ والتطوعيّ .

فخامة الرئيس .. لقد دفعني فوزك التاريخيّ إلى التساؤل العميق. هل كنت ستُحقق نفس هذه الفرصة لو أن والدك، وأنت من بعده اتجّهتم إلى إحدى الدول العربيّة الغنّية بفرص العمل ؟ حتماً لا.. لا .. لا .

فخامة الرئيس .. إن كان هناك من يستحق أن أهديه هذه الروايّة فهو أنت، لأنك صانع فِكرتها ، ملّهماً لي بكتابتها. سَتَظلُ رئيساً عظيماً نُكنّ لك في نفوسنا عظيم الاحترام والتقدير .

د. محمد مسعود العجمي

813 العجمي ، محمد مسعود ناصر العجمي .

أوباما يضل الطريق (رواية) / محمد مسعود ناصر العجمي .- ط1 .-

الكويت : المؤلف ، 2009

120 ص ؛ 24 سم .

ردمك 0 - 0- 964- 99906- 978

1. القصة العربية – الكويت

أ. العنوان

ردمك : : 0 - 0 - 964 - 99906 - 978

رقم الإيداع : 166 / 2009

د. محمد مسعود العجمي

أوباما يَضّلُ الطريق

سيرة افتراضية

رواية

الطبعة الأولى 2009